كتاب الهلال

قد تكون الديانة تجسيداً للعقل

عن جورج سانتايانا

وكتابه حياة العقل

www.books4all.net

منتديات سور الأزبكية

حصري من معرفتي

نقله وعرضه عن الإنجليزية

رجائى عطية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

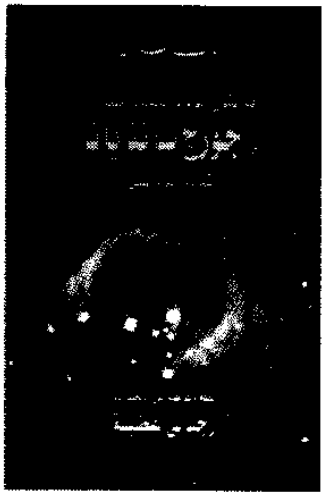

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

المدير الفنى

محمود الشيخ

مدير التحرير

أحمد شامخ

(الإصدار الأول: يونيو ١٩٥١)

الإدارة

القاهرة ، ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات: ص . ب: ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ تلغرافيا المصور ، القاهرة ج . م . ع .

تلكس:

[illegible]

فاكس:

FAX [illegible]

ثمن النسخة: سوريا ١٢٥ ليرة ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠ فلسا ـ السعودية ١٢ريالا ـ البحرين ١,٢ دينار ـ قطر ١٢ ريالا ـ الإمارات ١٢ درهما ـ سلطنة عمان ١,٢ ريال ـ اليمن ٤٠٠ ريال ـ المغرب ٤٠ درهما ـ فلسطين ٣,٥ دولار ـ سويسرا ٤ فرنكات ـ السودان ٣,٥ جنية

البريد الإلكتروني: darhilal @ idsc. gov. eg

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

قد تكون الديانة تجسيداً للعقل

عن جورج سانتايانا
وكتابه : حياة العقل
Life Of Reason
نقله وعرضه عن الإنجليزية

رجائى عطية

دار الهلال

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

الغلاف للفنان : محمد أبو طالب

رقم الإيداع

٢٠١٩٣ / ٢٠٠٩

I. S. B. N

997- 07 - 1377 - 5

تقديم

اعتاد كثيرون أن ينسبوا للأديان بعامة أنها لا تحتفي بالعقل ، وتأخذ بالآدمي إلي منطقة بعيدة بقدر أو بآخر عن إعمال العقل والتفكير .. واتهام الأديان بالابتعاد عن العقل اتهام قديم ، دفعه المتدينون وعلماء الأديان ، وعنيت الكتابات الإسلامية بخاصة بالتنويه بأن الإسلام بالذات عني بالعقل عناية جمة لم يُعن بها أي دين من الأديان ، وتكررت الإشارات إليه في القرآن المجيد بكل وظيفة من وظائفه، سواء فى مسائل العقيدة أو فى بدائع الخلق، أو فى أمور التبعة والتكليف ، وبهذه الإشارات القرآنية المتعددة المتنوعة ، تقررت فريضة

التفكير - وقوامه العقل - فى الإسلام ، وفيها كتب العقاد كتاباً ضافياً بعنوان التفكير فريضة إسلامية .

على أنه يشيع أن التقريب بين العقل والدين، غريب على لغة الفلسفة والفلاسفة - لذلك استوقفنى عنوان :

" How religion may be anembodiment of reason

أى : قد تكون الديانة تجسيداً للعقل ، ضمن جزء أكبر بعنوان :

العقل في الديانة "Mind in religion - من كتاب كبير بعنوان حياة العقل

" The life of reason (١٩٠ / ١٩٠٦) للفيلسوف الشاعر الأمريكى جورج سانتايانا

" George Santayana (١٨٦٣ - ١٩٥٢) ..

عرفه القارئ العربى عبر كتابات كثيرة عنه، ومن كتابه المترجم إلى العربية فى أكثر من طبعة الإحساس بالجمال The sense of beauty

.. كان مولده بمدريد، ودرس في جامعة هارفارد ، ثم انتقل ثانية إلي أوروبا ، واعتزل في أحد الأديرة بإيطاليا .. اتخذ موقفا مناهضا من الطقوس والشعائر وحاربها ، واهتم بروح الدين .. طبيعي في فلسفته ، يري كل شيء جزءا من الطبيعة ولا شيء في خارجها . من أهم كتبه إلي جوار : الإحساس بالجمال و حياة العقل - جملة سير بعنوان أشخاص وأمكنة ، وكتاب : عوالم الوجود ، فضلا عما نظمه من أشعار .

وكتاب حياة العقل (١٩٠٥/ ١٩٠٦) كتاب نظري فلسفي يقع في خمسة أجزاء رئيسية ، كتبه سانتايانا في أعقاب قراءته أعمال الفيلسوف الألماني هيجل ، وبالذات كتابه Phenemenology of mind(ظاهرة العقل) .. اعتبره سانتايانا سيرة افتراضية للعقل الإنساني . وحياة العقل بالنسبة لسانتايانا ،

كما هي بالنسبة لهيجل ، ليست مقصورة علي الأنشطة الذهنية أو العقلية ، حالة كون العقل في كافة مظاهره أو تجلياته هو بمثابة قوة أو حافز إندفاع غريزي مفعم بالتنوير . هذه النظرية أعطيت إيضاحات عملية في سلسلة مقالات جمعت في مجلدين عن مذاهب ونزعات الشعراء الفلاسفة دانتي وجوته وشيللي وسانتايانا وبرجسون وبرتراند راسل .

أما ما كتبه فى «حياة العقل» ، عن العقل فى الديانة ، وكيف تكون الديانة تجسيدا للعقل ، فهو ما شدني لمتابعته ونقل ما جمعته فى هذا الباب من مقتطفات للشاعر الفيلسوف الذى لا يمكن لعاقل لبيب أن يتجاهل ما يكتبه !

رجائى عطية

العقل فى الديانة *
قد تكون الديانة تجسيداً للعقل ؟

فى كتابه " « حياة العقل» "The life of reason" وفى الفصل المعنون بالعقل فى الديانة : "mind in religion" أورد جورج سانتايانا أن الديانة قد تكون تجسيدا للعقل ، وأن الخبرة قد أيدت باطراد صدق قول بيكون المأثور المشهور أن القليل من الفلسفة يميل بعقل الآدمى إلى الإلحاد ، ولكن التعمق فى الفلسفة يقود العقل إلى الدين ، ففى كل عصر نجد أن أوسع مفكريه أفقا قد أنسوا فى ديانة بلدهم وزمانهم شيئا استطاعوا قبوله ..إذ إنهم فهموا وشرحوا الديانة على نحو أعطاها عمقا وشمولا فى التطبيق وأنه عند التعمق -

* الديانة التى يعنيها سانتايانا هى الدين بعامة ، وجدير بالذكر أن كل ملاحظاته واستشهاداته تنصرف إما إلى الديانة فى الأساطير ، ولدى الإغريق والرومان وغيرهم من القدماء ، وإلى اليهودية والمسيحية ، ولم تنصرف أى من كتاباته أو استشهاداته إلى الإسلام .

حتى بالنسبة للمارق أو الملحد - قد يصبح المتعمق بشيرا لعقيدة دينية جديدة ، لأن هذين إنما يتمردان على ديانة غريبة على طبيعتها .. فهما ملحدان فقط بالعرض والمصادفة ، وبالنسبة لعرف يعتبرانه مهيئًا .. فى حين أنهما يهفوان - بالعمق والشمول - إلى مفهوم دينى للكون يتفق مع طريقة تفكيرهما .. فإلحادهما واعتراضهما فى الواقع يمثل الجانب الأكثر استعجالا فى تفكيرهما.. لأن الذى جرأهما على إنكار الإيمان السائد الغفير - هو قلة صبرهما على فهمه !.. والاستنارة التى تحس بها العقول الشابة فى أول أمرها والسخرية القديمة التى درج عليها الساخرون الذين يتيهون ويزهون بالكشف عن عدم صلاحية الدين ولياقته من الوجهة العلمية بالإشارة إلى وقائع فى العلم لا تتفق مع التعاليم الدينية إذا ما أخذت التعاليم الدينية مأخذا حرفيا - دون نظر إلى العادات الفكرية التى صدرت عنها تلك التعاليم ودون نظر إلى معناها الأصلى ، وإلى حقيقة الوظيفة التى من أجلها جاءت تلك التعاليم .. لأن النظر فى هذه الأمور ودراستها يضع المتشكك وجها لوجه أمام ما فى حياة الإنسان من سر

ومأساة ..لأنها تجعله يفهم لماذا يؤثر الدين فى النفس هذا التأثير العميق ، ولماذا هذا التأثير هو على نحو ما عميق وسديد معا .. لابد إذن أن هناك شيئا إنسانيا وضروريا فى هذا التأثير الذى أصبح أعم ضمانة للفضيلة وبأوسع الفرص المتاحة - في ذات الوقت - للفن والفلسفة والمصدر لأفضل ما يفوز به الإنسان من سعادة .. وإذا كان لا يوجد شيء منفر وبغيض كالديانة الغاضبة الساخطة كما قال هوكر ، فإن العداوة المرة للدين لا تقل عن ذلك تشوها ونكرًا وشذوذًا !!

يواصل سانتايانا أنه حين كتب بيكون عبارته المشهورة المأثورة ، فاته أن يقول إن الرب الذى يعود إليه التعمق فى الفلسفة بعقول العباد خلاف الرب الذى تبعد عنه العقول قلة الفلسفة .. لأنه يكون حتما من المؤسف أن لا ينتج التفكير الناضج تصورا أفضل مما ينتجه التفكير القصير فى المجرى الموحل للزمان حيث تخلط العادات والأهواء الأشياء كلها معا .. فالتصورات المتوارثة إذا كانت موفقة قد يتقبلها ويتبناها الشاعر ، ولابد أن يصفها صاحب علم الأخلاق ، وأن يحللها صاحب الفلسفة .. وكل ديانة مهما تكن غالية عزيزة على

أهلها الذين يملأون بها حياتهم قداسة ، ومهما تكن وظيفتها الاجتماعية لازمة للجماعة التى تعتنقها .. فإنها تتناقض حتما مع الديانات الأخرى .. بل وقد تتناقض - فيما يقول - مع نفسها .. وديانة هذا الآدمى أو ذاك - حدث يحدث له وعارض تاريخى يعرض على غرار اللغة التى يتكلمها وفى الأحوال النادرة التى يقع فيها ذلك الحدث بطريق الاختيار - لا يسلم التغيير الاختيارى من المشقة .. فهو يتبنى اعتياداً جديداً يتفق مع مزاجه الشخصى ، ولكنه أساسا اعتياد متسلط متحكم كالاعتياد السابق الذى تركه وتخلى عنه !

كل ديانة إيجابية ومتفردة

فى إطار أن كل ديانة إيجابية ومتفردة .. يورد سانتايانا **أن محاولة الكلام بدون استعمال أى لغة من اللغات محاولة مستحيلة ، لكنها ليست أكثر استحالة من محاولة أن يكون لك ديانة - وليست دينا من الأديان المتميزة المختلفة .. فساعى البريد أو الترجمان كثيرا ما تكون لغته غير عادية مستمدة من مصادر مختلفة ، ولكن فيها مزيجا شخصيا أحيانا على** درجة ما من الأصالة .. وهذه الرطانة الشخصية لا يكون لها معنى إلا بفضل مشابهتها للغة أو أكثر من اللغات المعروفة واشتقاقاتها .. وهكذا يكون الشأن بالنسبة لاولئك المسافرين المتنقلين من ديانة إلى ديانة أخرى الذين فقدوا قوميتهم الروحية .. فهم يحتفظون ببقية محايدة مختلطة من الاعتقاد يتصورون توهما أنها أصل لجميع الأديان .. وهم قلما يتذكرون رشاقة وألفة اللهجة القديمة الموروثة التى لا غنى

عنها لأية ديانة كاملة .. ولكن لحظة من الفحص للتصورات الباقية فى عقول أولئك الناس - تكفى لإقناعك بان هذه التصورات ليست إلا بقايا لعقائد قديمة كِسْرات وثنيّات فى نسيج الفكر رغم خلوها من التعاليم العقائدية - لم يمكنها أن تخفى آثار كسراتها . والأجيال التالية لأولئك إن تكن لها ديانة .. فهى إما الديانة القديمة عادوا إليها ، وإما إيمان جديد إيجابى أعلنه عبقرى جديد واعتنقه أتباع بقوة وحماس ، فانحازت إليهم تلك الأجيال انحيازا تلقائيا .. فكل ديانة صحية حيّة .. لها ما يتفق وما لا يتفق مع طبعها بشكل واضح .. وقوتها فى رسالتها المفاجئة الخاصة وفى تحويلها للحياة فى اتجاه إلهاماتها وما تبشر به فيما تفتحه من آفاق الرؤية وما تخركه من الأسرار ، يشكل لأتباعها عالما جديدا يعيشون فيه .. وهذا هو ما نعنيه - يعنى سانتايانا - بأن لنا ديانة .. سواء توقعنا أن نسلم أنفسنا كلية لهذا العالم الجديد أو لم نتوقع .

هدف الديانة حياة العقل

يرى سانتايانا أن قوة كل ديانة صحية حية ، تكمن فى قوة رسالتها وتحويلها للحياة فى اتجاه إلهاماتها وما تبشر به فيما تفتحه من آفاق الرؤية ، ولكن السؤال هو : ماهى صلة تلك المسألة الروحية العظيمة التى نسميها الديانة بحياة العقل ؟! .. إن الصلة بين هذه وتلك صلة وثيقة .وهى واضحة من عدة وجوه .. فحياة العقل تلتقى فيها وعندها كل القيم النهائية .. فتاريخ البشر يشير إلى أنه كلما اشتدت أرواح الناس وسمت وبدا أنها بلغت أعلى درجات المسرة ـ جاء توفيقها إلى ذلك من خلال الديانة والدين .

فالديانة كما يبدو مَرْكبة أو عامل من عوامل الحياة العاقلة .. بها أو به تبلغ الحياة العاقلة غاياتها وأهدافها .. وحياة العقل فى ذاتها مثل أعلى يصح أن يتجه إليه كل ما فى الوجود .. فهى تقيم الفروق الأخلاقية فى كل اتجاه ، وتجعل

الحق إلى الأبد خلاف الباطل الخاطئ .. وهو ما تفعله الديانة . إذ هى تفرض قرارات أخلاقية مطلقة ، وتكسو قواعد الأخلاق بقداسة وتوحد بينها، فالديانة تقوم بوظيفة مهمة فى حياة العقل ، وهى مع العقل يقومان بتحرير الأدمى وتخليصه من عوائقه ومحدودياته !

والديانة لديها وعود شتى لنقل روح الآدمى إلى حالات أفضل .. مملكة الرب على الأرض للذرية فى المستقبل ، أو ملكوت الرب فى السماء للجميع بعد الموت ، أو تخليص الروح بتكرار التطهر من الأوضار والأحزان ، أو بإذابتها فى المطلق ، أو بصيرورتها موضوعا للعبادة فى الأمكنة التى كانت تغشاها أو حيث تمارس الأنشطة التى تحبها بواسطة الأجيال المتعاقبة من قرابتها .

فى كل هذه الإمكانات يتراءى العقل بطريقته.. مشيرا إلى الأغراض المشتركة سياسية أو فكرية التى فيها يتخلى الفرد عما هو فان أو عرضى ، ويستديم ما هو معقول وإنسانى .. فهو أى العقل - يعلمنا كيف يكون الموت حلوا وسعيدا لمن فى مقدورهم أن يعيشوا بالروح فى أوطانهم وأفكارهم ، ويكشف

الآثار المنيرة المشعة للعمل ، والأهداف الدائمة للفكر .. إلاّ أن الاختلاف فى النغمة واللغة ، لابد أن يلفت نظرنا إذا كانت الفلسفة هى التى تتكلم . هذا التغير يذكرنا بأنه حتى حين تتلاقى وظيفة الديانة مع وظيفة العقل ، فإن هذه الوظيفة تؤدى بجهازين مختلفين جدا .. فالديانات متعددة ولكن العقل واحد .. والديانة عبارة عن أفكار واعية وآمال وأشواق واهتمامات وموضوعات للعبادة تعمل عملها بفضل اللطف والنعمة وتزدهر بالصلوات ، بينما العقل مجرد مبدأ لنظام بالقوة يمكن به أن نتأمل ونفكر ، ولكنه يوجد لدينا بصورة معنوية فقط بلا تغاير أو ضغط من أى نوع نوافقه أو لا نوافقه ـ لا يضطرنا ولا يلومنا ولا يستدعى أى انفعال فينا خلاف الانفعالات الطبيعية التى تثيرها الأشياء المختلفة التى يكشف عنها العقل ـ فى طبيعتها الذاتية ونسبها الحقيقية .. هذا على حين أن الديانة تفرض نوعا من النظام مثقلا بمواد جديدة . حيث لا يضيف العقل إلى المواد الطبيعية إلا النظام التام الذى يدخله فيها .. فالعقلانية أو المعقولية ليست إلا صورة أو شكلا أو تركيبا معنويا تتجسده الخبرة بدرجة ما

قليلة أو كبيرة .. أما الديانة فجزء من الخبرة ذاتها .. كتلة من المشاعر والأفكار .. ذلك مبدأ لا يمكن المساس به .. وهذه قوة متغيرة مكافحة . هذه القوة المكافحة المتغيرة مع ذلك قد توجه الآدمى إلى شيء دائم يبدو أنها تعمل من أجل تحقيق اتساق وتوافق نهائى داخل الروح ، وبين الروح وكل ما تتوقف عليه الروح (ويقصد سانتايانا بالروح مجموع عقل الآدمى من فكر وعواطف وشعور كوحدة كلية متماسكة من الذهن أو الفكر ومن الحدس والحس والميول) ، فالديانة من حيث مقصودها - فيما يورد سانتايانا - هى سعى أكثر وعيا ومباشرة لحياة العقل من المجتمع ومن العلم ومن الفن .. لأن هذه تقرب وتملأ الحياة المعنوية مترددة أجزاءً ونتفاً ، ولا تكاد تواجه الهدف الكلى أو تلتفت إلى المبرر النهائى لأهدافها الغريزية ..على أن للديانة أيضا جانبها الغريزى الأعمى - وهى ترغى وتزبد بكل صور العمليات العشوائية والحدسيات، ولكنها بسرعة تحسن طريقها إلى قلب الأشياء - ومن أية جهة تخطو وتجيء تتحول نحو ما هو نهائى !!

ولكن يجب أن نعترف باحتمال إجهاض هذا السعى

الدينى لحياة العقل إجهاضا ملحوظاً ، بيد أنه لأتباع كل ديانة أن يحملوا أنفسهم على الرضاء بما حققته الديانة انحيازاً منهم إلى تاريخهم الماضى ، أو إسرافا فى الأمل فى المستقبل .. ولكن من ينظر إلى الديانات المختلفة ويقارن بين الذى حققته وحققه العقل ، قد يشعر بخيبة أمل بشأن مقدار ماهيأته الديانات للنوع الإنسانى ، ربما لأن همها الرئيسى كان تقديم علاجات خيالية لأدواء عميقة من بينها ما ليس له علاج ، ومنها ما يمكن علاجه علاجاً حقيقياً بمجهود موجه توجيهاً سديداً .. فمثلاً مراكز الإلهام لدى الإغريق ادعت القدرة على علاج الجهل الطبيعى وهو مع صعوبة علاجه ـ يمكن مكافحته بما يتناسب معه ، بينما النظرة المسيحية للسماء ترى أنها ترياق للموت وشفاء منه ، والموت هو قرين الميلاد لا يمكن أن يتوقاه أحد فى وجود متغير مشروط محدود .. وبهذا النوع من الأساليب لا يمكن عمل شىء لتحسين حياة الآدمى تحسينا حقيقياً ، وإنما يؤدى إلى إرباك الفهم والشعور والعاطفة بأوهام ليس لها مقابل حقيقى، وبأسلوب قصير النظر فى البحث عن السعادة ..

والطبيعة سرعان ما تأخذ ثأرها .. إذ يعقب المغالاة فى التسامى والنظرة الأخلاقية إلى الأمور بعين واحدة - ردود أفعال محزنة تبدو معها النعم الحقيقية للحياة خالية من المعنى ، ويصبح اسم الفضيلة مثيرا لغضب النفوس الشابة التى لم تتعلم تذوق النعم الطبيعية ، ولذا كثيراً ما تتسبب بعض الديانات في التأثير السلبى على الأخلاق التى جاءت لتحميها، فتؤدى إلى إعاقة العلم الذى يلزمها أن تأخذ بيده !

ولكن ما السر فى ذلك ؟ ولماذا الديانة مع قربها الشديد من المعقولية فى توخيها لهدفها - لا تنجح فى تحقيق نتائجها؟ الإجابة سهلة - فيما يقول سانتايانا ..فالديانة تحقق المعقولية من خلال المخيلة .. فهى حين تفسر الأحداث وتعين الأسباب - فإنها تقدم البديل الذى يحل محل العلم ، بالاعتماد أساسا على المخيلة .. وهى حين تقدم المبادئ توحى بالمثل وتعيد تشكيل الأمانى ، فإنها تقدم الحكمة المبنية على الروية والحيدة فى مسعاها إلى كل خير ..

وظروف الحياة وأهدافها تتمثل فى الديانة - بطريقة

شعرية .. ولكن هذه الشاعرية تميل إلى أن تعطى لنفسها صدقاً حرفيا وسلطانا أخلاقيا .. وهى لا تملك هذا ولا ذاك ، لهذا وبهذا ـ يصبح عمق الديانة وأهميتها أمراً قابلا للفهم .. هدفها هو نفس هدف العقل ، ولكن منهجها يعتمد على الحدس وعلى التصور الشاعرى الذى لا يجد ما يصده .. وهذان يتكرران ويشيعان بنسبة ما كان فى أصلهما من معنى ودقة ، إلى أن يصبحا ترديدا لما هو صادق صدقاً موضوعيا .. وينشأ ويقوم عليه " عالم إيمانى "يتربع فوق " عالم الخبرة " .. يُنظر إليه على أنه يشمله شمولاً مادياً .. إن لم يكن من حيث المكان فمن حيث الزمان والوجود .

والصدق فى الديانة ـ يجيئها من تفسيرها للحياة ، ومن تعبيرها الرمزى لتلك الخبرة الأخلاقية التى تتدفق منها والتى تحاول أن توضحها .. أما الزيغ فيأتى من سوء الفهم المتسلل الذى يلتصق بها التصاقاً يتبنى أن تلك التصورات ليست شعرية فحسب ، ولكنها إخبار حرفى بالحقيقة أو الواقع والخبرة كما ينبغى أن تكون ، وأنهما بذلك يعوضان العيوب التى يكشفها الواقع والخبرة هنا فى هذا العالم .

لا يمكن إنكار القيمة الشعرية للديانة

لا يمكن فيما يرى سانتايانا إنكار القيمة الشعرية للديانة، فالديانة بعامة ، لها نفس الصلة الأصلية الوثيقة بالحياة التى للشعر .. والشعر وحده - وهو لا يدعى قط الصدق الحرفى - يضيف قيمة خالصة لوجودنا هى قيمة مسعى حر للمخيلة ، والقيمة الشعرية فى الديانة - بداية أسمى وأكبر من قيمة الشعر ذاته .. لأن الديانة تتعامل فى مواضيع أعلى وأجدى ، وفى جوانب من الحياة أشد احتياجا للمسات الخيال ولتفسيرات مثالية - أكثر من احتياج الأغراض العادية للشعر من طرب وسرور وفخامة ، ولكن تفوق الديانة على الشعر - يضيعه من جهة ما تتعرض له الديانة من إساءة الاستعمال .. حيث يؤخذ صدقها الرمزى على أنه حقيقة علمية .. وهى كالشعر تحسن الدنيا وتصلحها بتخيل أنها تحسنت وصلحت ، لكنها لا تَقْنَع بهذه الإضافة

إلى ممتلكات العقل الآدمى - وهى إضافة قد تنفعه وتثريه وتسمو به ، بل تظن أنها تمنح نفعا أكبر وأكثر أهمية بإقناع الناس بأن العالم رغم ظواهره ومظاهره هو هو العالم المثالى الذى رسمته الديانة وفرضته .. وهذا الرضا الزائف هو - بطبيعة الحال - المقدمة لخيبة أمل كثيرة الوقوع .. ولا حد للمشقة التى تجدها روح الآدمى فى الخلاص من المشاكل المصطنعة والعواطف التى غرقت فيها مما يجعل قيمة الديانة (فى نظر الناس) محل شك .. ولكن لا تزال الديانة شيئا مهماً تحقق على صعيد المخيلة وبفضلها ، وهى تمثيل رمزى لواقع أخلاقى أو حقيقة أخلاقية لها وظيفة على أعظم جانب من الأهمية فى إعادة الحياة إلى العقل ، وفى نقل دروس الخبرة من طريق الأمثال والاستعارات بين الآدميين فى الأزمنة والأمكنة ، لكنها فى نفس الوقت سبب لانخداع عرضى لا ينقطع . وهذا الانخداع - على نسبية العناد فى إنكاره - يمكن أن يحدث ضرراً لا حدود له فى العالم وفى الضمير !

الديانة تأتى قبل العلم وتفوقه

على الجملة ينبغى ألا نتصور أن الديانة قد أخذت محل شىء أفضل منها .. لأنها حين جاءت لتخفيف مواقف لولا وجود الديانة لكانت أسوأ بما لا يمكن وصفه .. ففى غمرة الحياة الواقعة وشدتها وفى رتابة العبودية العملية ، يحتاج الآدمى إلى ما يقوى ويثير خياله أكثر من احتياجه إلى ما يشكمه ويكبحه .. فلا يقلق الغريزة الطبيعية فى مخ الآدمى ما يحدث فى نسيج الأفكار الذى يوجد فوقه ، ولا يسوغ لنا أن نلوم الديانة على أنها حالت دون نمو العلم الأخلاقى أو العلم الطبيعى الذى لم يكن ليظهر ، بل ينبغى أن نحمد للديانة الحساسية والتوقير والبصيرة المتأملة التى جاءت بها إلى العالم وقدمتها له وأدخلتها فيه !

الديانة رمزية

بعد هذا يمضى سانتايانا فى تحليل معنى ووظيفة الديانة فى أطوارها المختلفة ، فيورد أننا دون أن نخفى أو نقلل من شأن خلطها بالصدق الحرفى ـ نسمح لأنفسنا مع العطف الممكن ، أن نتناول تصوراتها وانفعالاتها المختلفة .. وهذه قد كونت الحياة الداخلية لعدد كبير من الحكماء ، ولجميع أولئك الذين دون أن يوهبوا عبقرية أو كبير علم ـ عاشوا بثبات وإصرار فى الروح .. فالشعور بالتوقير فى ذاته يستحق التوقير ، ولكن ليس إلى درجة التضحية بالصدق الذى هو اللائق فى النهاية والمناسب للتوقير .. ولا يوجد داع يدعونا إلى عدم التسامح والضيق حيال ما تبديه الديانات من وجوه التميز والتناقض .. فلو كنا نتعامل مع العلم ، لكانت هذه التناقضات قد رفعت وزالت فورا ، ولكن حين يتعلق الأمر بالتفسير الشعرى للخبرة يكون التناقض معناه المغايرة فقط ، والمغايرة معناها التلقائية وغنى المصدر ومزيد من القرب من

الكفاية الكلية الشاملة .وإذا رجونا أن نحصل على فهم لهذه الأمور ، لزمنا أن نبدأ بانتزاعها من الجو المتعصب شديد الحرارة التى زرعتها ونمتها فيه التقاليد العبرية .. لم يكن لليهود فلسفة .. وحينما أريد توضيح وتبرير تقاليدهم القومية ـ نظرياً ـ تم ذلك بطريقة طفولية ساذجة وتعصب جنونى غير معقول .. فمسألة الوحدانية ـ كانت مسألة رهيبة لليهود . فلم تكن الوثنية عندهم مسألة عبادة إله غير مثالى لا يستحق أن يعبد ، بل الاعتراف بآلهة أخرى خلاف الإله المعبود فى أورشليم .

أما عند الإغريق الذين كان لديهم فلسفة على درجة من العبقرية ، فالوحدانية والتعدد لا تعارض بينهما عندهم . وإذا قال الآدمى الرب أو الأرباب ، فقد استعمل تعبيرات مختلفة شكلا ـ للإشارة إلى ذات النفوذ أو ذات القوة .. تُرَى حينا فى وحدانيتها المجردة واتصالها بالوجود كله ، وحينا فى مظاهرها المختلفة فى الحياة الأخلاقية ، وفى الطبيعة أو فى التاريخ . وما يقابلنا فى قراءة أفلاطون أو أرسطو أو الرواقيين فى كل خطوة من ذلك الجمع بين الوحدانية والتعدد

ـ ليس تناقضا ، وإنما مغايرة ذكية فى التعبير للإشارة إلى اختلاف الجوانب والوظائف فى الأشياء المادية والأخلاقية .. وجميع تناقضات وخلافيات الديانة تفقد فى هذا الضوء ـ حدتها حتما . فكل مذهب يكون عندئذ مجرد تعبير عن المستوى الأخلاقى الذى يعيش فيه أهله ومعتنقوه وتصبح الديانة أى ديانة إما حسنة وأما غير حسنة ، ولكن لا تكون قط صادقة أو كاذبة .

السحر.القربان.الصلاة

والديانة بعامة ، فيما يقول سانتايانا ، فى الفصل الثالث ، شكل من أشكال الحياة العاقلة .. أكثر من الفن بدائية وانطباعا بالطابع العملى ، وأقل من الفن قيودا .. فيها وعى الآدمى أكثر غوصاً فى الطبيعة ، وأقرب إلى الوحدة البنائية التى تشمل الحياة بعامة .. فالديانة تنعى على الفرقة وتحتفل بالتوافق بمزيد من الدهشة السلبية الفنائية .. والعمل الذى تنفرد به الديانة وتختص - عمل مفروض بتكليف غير معلل لا يعرف الكيفية التى بها يحدث النتيجة العملية التى ترتبها عليه الديانة .. وكما تقف الخرافة النظرية عند أى سبب ، تمسك الخرافة العملية بأى وسيلة .. والديانة)بعامة) تظهر تحت الضغط العالى ..إذ فى النهاية الأخيرة يلجأ كل إنسان إلى الرب ، ولكن فى النهاية الأخيرة تكون كل الوسائل المعروفة للعمل قد ثبت إخفاقها .. وحين تكون كل المصادر قد استنفدت وكل الأفكار قد فشلت ، فإن الإرادة إذا بقيت فيها

بقية من الحيوية ـ تطلق نداءها الأخير إلى الإلهى إلى ما فوق البشر .. وهذا النداء بالضرورة يطلق بلا معرفة ولا رؤية أى فى الظلام ، فهو نداء الشعور بالعجز والإقرار بالحيرة .. ما الذى يفعله الآدمى فى مثل هذا الموقف لاسترضاء الآلهة ؟ .. إذْ لإنتاج نتيجة سحرية يعجز الفن عن إنتاجها ـ لابد أن يكون العمل عملا عشوائيا .. عندئذ يرتد إلى الوراء إلى النقطة التى بدأت منها الغريزة والعقل ، وتحركه يكون بصورة كلية مطلقة .. تحركا تجريبيا ـ تلقائيا كله غير موجه .. لا سبب لديه يقلل به ما يفعله إلا أن عليه أن يفعل شيئاً .

ماذا وراء فكرة القربان ؟!

والذى يفعله الآدمى - ليس فيه شىء غير عادى ، فإن " الزهر" مهما كثر تحريكه لا يسقط إلاّ على هذا الجانب أو ذاك من جوانبه الستة .. ودون كيشوت فى أى مغامرة من أجل الخير المطلق كان يلقى بشكوك اللوم على عنق روسينانت ، وكانت المسكينة بطبيعة الحال تختار الطريق العام .. والآدمى فى حيرته القديمة بشأن ما يسر الآلهة ، كان ينتهى إلى اختيار ما يرضى عنه هو .. ومن المحزن ملاحظة مبلغ هبوط الدوافع التى تسندها الديانات حتى أسماها - إلى الرب ، وأن هذه الدوافع الهابطة مستقاة من حياة مطحونة وعين مريرة .. أن يُعطى إلى الرب أفضل قطعة .. أن يُتذكر ..أن يُحمد .. أن يُطاع طاعة عمياء لا تنقطع . هذه نقاط الشرف التى كانت فى التعامل مع الأرباب .. بها يمنحون النعم ، أو ينزلون العقوبات على أوسع نطاق .. وانتشار عادة التضحية أو القربان أو الفداء مثلها مثل

الكفارات لاتقاء الإيذاء والإيلام - يعكس حسداً أشد هبوطاً وسوء طوية .. لأن الوظيفة التأديبية لهذه الأشياء لم تكن ملحوظة فى البداية ، ولم تكن لتربطها بالديانة .. فتخصيص القربان لمرضاة الآلهة ، والتضحية بأول مولود وغير ذلك من آلاف المراسم - لم تكن الفكرة فيه

(آنذاك) إلاّ أن ثمة رقيباً حسوداً لا يُرى رغم أنه قريب يمكن أن يسمم الكل .. انتقاماً لأنه هو لم يستمتع به ، إلا إذا قُدم إليه طواعيةً واختياراً جزءٌ منه يفى جوعه .. هذا الرقيب كان شيطانا يعامل كما يعامل اللص .. يقدم إليه الإنسان كيس نقوده ليخلص منه حياته .. ووصف هذه الأرباب (فى الزمن الغابر) - بأنها حسودة غيورة ، فيه قدر من الصدق الرمزى .. لأن الحظوظ الأرضية عرضية فى الواقع لا أمان لها .. وهذا الوصف وأمثاله ربما يثبت فى النفوس قدرا من قلة التهافت والحرص على الأشياء المادية ونوعاً من الفلسفة .. ولكن ذلك الحسد المنسوب - قديماً - إلى الأرباب ، كان فى البداية هو والميل إلى الثأر والانتقام - استدعاء للفداء

والتضحية والقربان ، لدفع ذلك الحقد على الآدمى حتى بالنسبة لأشياء لا يمكن أن يستمتع بها الأرباب أنفسهم ، كان الرب إذ ذاك وكأنه طاغية وكان عابده إذ ذاك وكأنه دافع ضريبة .. يسلم عشوره ليتحصن من مطالبات أخرى أو ليؤمن نفسه من هجمات أرباب آخرين ، كانت الأرباب والآدميون فى ذلك الزمان الغابر أعداءً طبيعيين يعيشون فى نوع من السلام السياسى !

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

فتون الطقوس والقرابين فى الزمن الغابر !

على أن الضحايا والقرابين لم يكن لها فقط هذا المعنى الكئيب المزعج .. فمنذ أن كانت استدعت معها أفكاراً أكثر إسعاداً .. إذ كانت تجرى كجزء من عيد لتأمين الوفرة أو ما كان رشوة فى نوع من المقايضة لتهدئة روح لا ترضى بأقل من الهلاك الكلى لضحاياه .. كان من السهل أن ينظر إلى ذلك كتوزيع سليم لما حدده العرف لكلٍّ .. هذا القدر للرئيس وهذا القدر للرب وهذا القدر للمربى .. كان ثمة نوعٍ من الصراحة وصورة من صور العدالة وإعطاء كلٍّ حقه حسب العرف المصطلح عليه أيا كان مبلغ جدارته به واستحقاقه الفعلى له .. وفى المراسم الدينية كان يلعب هذا الشعور دوراً مهماً ، ويجد به الآدميون رضاً وراحة فى أن يؤدوا المفروض المقرر - بطريقة لائقة .. ولما كانوا لا يعلمون شيئاً كثيراً عن الأساس أو المعنى لما يؤدونه ، فإنهم يشعرون بالرضا

والأمان على الأقل إذا أدوه كما ينبغى وعلى الوجه الصحيح .. وغالبا ما كانت تقدم القرابين بهذه الروح ، وحين يتم ذلك فى نظام جميل يمنحه الهدوء الدينى القدرة على أدائه ، لا يجد العقل موضعا لتدخله ، ويكتفى بالنظر على هامش الموضوع المعروض ، وعندئذ تظهر الحكاية على يد المشاعر الدينية والجديد الذى توحى به على المسرح بشكل واضح .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

تقدمات الشكر

فى الطقوس الزراعية كانت تقدم القرابين للآلهة المشرفة على الإخصاب والإنماء التى ربما تحبس رضاها ، ويكون لذلك نتائج فادحة .. والآلهة تكون عادة رقيقة مستجيبة إلى ما يقدم لها من كيزان الأذرة أو كعكات الشعير أو مسكوب النبيذ الذى كان يقدم على سبيل العرفان والشكر أو على سبيل التبصر للمستقبل .. فالقربان أصبح صلاة شكر .. ففى التقدمة المسيحية ، وهى غالبا تصدر - فيما يقول سانتايانا - عن نوازع بدائية ، تردد أساليب وثنية فى إطار فكرى .. الفداء ليس تكفيراً بحتاً وليس مجرد دين يوفى وتبرأ منه الذمة ومقدارا من المشقة يتعين تحمله .. ليس هذا هو الذى حدا بابن الرب (فى العقيدة المسيحية) لأن يصير آدمياً ويحمل صليبه .. كان هذا منه عملا من أعمال المحبة بقدر ما كان عملا من أعمال الإشفاق والرثاء .. وتأثير هذا الاعتقاد على القلب الآدمى يتركز فى الشعور بأن الرب أراد

أن يشبه نفسه بالآدمى أكثر من أنه أراد أن يعبر من عل ـ عن مغفرته للآدمى .. فكان التجسد فى الحقيقة إعادة اعتبار للآدمى وفداءً فى ذاته ومغفرة .. لأن الآدميين يحبون أن يعتقدوا أن الرب قد جلس على مائدتهم ومشى بينهم متنكراً .. وهذه الفكرة تتملق غرورهم .. وفيها إشارة إلى أن الجانبين يمكن أن يتبادلا اللياقة والمجاملة أو إشارة لمن يتعمقون فى النظر فى الفكرة ـ إلى الصدق الفلسفى للمادة .. أليس الأرباب أنفسهم فى جهد أبدى لبلوغ مثلهم الأعلى ، وأليس الآدمى جزءا من العالم ، وفنّه قطعة من الحكمة الإلهية ؟ فإن كان التجسد فداء معنويا حكميا فإن أصدق تجسد هو عملية الخلق المجهدة ذاتها !

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

قربان القلب النادم التائب

وإذا كان القربان فى جانبه الألطف يمكن أن يصبح تقدمة شكر وتعبيرا عن تبعية مفيدة ، فإنه يمكن أن يحمل تعبيراً أكثر نبلاً مع الاحتفاظ بكل تجرده .. فالقنوع والترك هما حجر الزاوية فى الحكمة ، وهما شرط كل إنجاز صحيح حقيقى .. وحين يطلب الأرباب منا قربانا ، قد يدعوننا لا إلى النزول عن جزء من طعامنا أو من حريتنا ، بل إلى النزول عن الجانب الأحمق غير المنضبط من إراداتنا .. وهذا القربان ليس مما أملاه حسد أو حقد على عدو فى احتياج إلى تهدئة وتسكين ، بل هو مما يمليه صديق بعيد النظر يريد لنا ألا نقع فى خديعة .. وإذا كان ما أمرنا أن نتخلى عنه هو فقط ما يؤذينا ، فإن الرب الذى يتقاضانا هذا القربان يكون مثلنا الأعلى .. ليس له فى الأمر مصالح إلاّ مصالحنا نحن ، وهو ليس جزءا من البيئة بل هو الهدف الذى يحدد لنا كيف نسير

لنحقق أكثر ما يمكننا تحقيقه من أعمق أمانينا .. وحين تصل الديانة بعامة إلى هذا الطور - تكون قد أصبحت أخلاقية حقاً وعمقاً ، ولم تعد تمثل تمثيلا من الظروف المادية ، وتكون قد تعلمت كيف تجسد الطيبات الروحية .

على أن القربان طقس ، وقلما تستطيع الطقوس تجسيد الأفكار الأخلاقية الخالصة .. إذ يلتصق بأداء الطقوس شيء درامى أو تصوفى .. وحتى حين يكون أثره هو التطهير يكون ما يصحبه أشبه بحدوث راحة انفعالية وتفريغ ، أكثر منه بحدوث تحسين أخلاقى .. والقداس قربان طقسى والتناول جزء منه ، وهما يشبهان أقرب الشبه ما عليه القرابين دائما .. هذه المراسم مع الانفعالات الغائية التى تثيرها - لها تأثير واضح جدا .. ولكن الجذب هنا تصوفى - سرعان ما يبتعد عن الرب .. ومن الوهم المحض القول أن أثرا أخلاقيا دائما يترتب على هذا العمل ! .. وقد أحست به الكنيسة الكاثوليكية - فيما يقول سانتايانا - فأدخلت الاعتراف ، وفيه يطلب من الآدمى أن يفكر فيما يريد أن يضحى به من جانبه هو ، وفى أى وجهة عملية يعتقد أنه مقود بفضل تلك المؤثرات التى خضع لها أثناء هذا الطقس .

ليست الصلاة نفعية فى جوهرها

يورد سانتايانا أنه كما يعبر القربان عن الخوف ، تعبر الصلاة والدعاء عن الاحتياج .. واللغة فى الحس المشترك شىء يقصد منه أن يفهمه الآخرون وأن يورث تغييرا فى مزاجهم وسلوكهم ، ولكن للغة منافع سابقة على التعقل .. ربما أهمها الشعر والصلاة .. والآدمى حين تغلبه العاطفة الشديدة يتخذ مواقف درامية لا يقصد أن يشاهدها أحد أو يفسرها أحد شأنها شأن الدموع والإشارات .. قد تمس قلب راصد لكنها غير مقصود منها تحقيق هذا الغرض . كذلك رصيد الألفاظ والعبارات الكامن فى العقل تتدفق منه الألفاظ والعبارات تحت ضغط الانفعال وتفيض .. لأنها من توابع الموقف ، ولأنها تملأ وتكمل إدراكا استغرق العقل ، لكنها لم تفض ابتداء لكى يسمعها أو يصغى إليها أحد .. وغريزة الصلاة أحد الطرق الرئيسية إلى الرب .. والشكل الذى

تتخذه الصلاة يساعد مساعدة هائلة على تحديد القوة التى تتوجه إليها الصلاة ، ولذا فإن الآدميين بعملية الصلاة يصورون لأنفسهم ما الذى يجب أن يكون عليه الرب .. يقولون له بإسهاب ما الذى يعتقدونه ، وما الذى يتوقعون منه .. والأشكال الأولى للصلوات - ليست من السخف بالدرجة التى عليها الأشكال العقلانية ، وعلى عكس القربان يبدو أن الصلاة تجد المبرر لها فى جوهرها وتهبط قيمتها ومنزلتها بالتحولات التى تعتريها بسبب التفكير حينما يحاول الآدمى أن يجد موضعا للصلاة فى فكرته عن ترتيب الكون ونظامه .. إذ إن جوهر الصلاة شاعرى تعبيرى تأملى .. وتفقد معناها كلما أصر الآدمى على جعلها مبادلة تجارية رخيصة بين جانبين متقابلين . إن الصلاة أو الدعاء حديث نفسى وحدث نفسى .. يعبر عن احتياج .. ولأنها كالقربان وسيلة يائسة يهرع إليها الآدمى فى عجزه تتطلع إلى تحقيق نتيجة بإطلاق صرخة ، أو التعهد بنذر ، أو بمقارنة فصيحة بين ما هو حاصل وبين ما ينبغى أن يحصل كوسيلة لإحداث تغيير إلى

ما هو أحسن أو لاستنزال التصور على الذات أو لتحمل هلاك محبوب أو لتحقيق شيء تافه أو استبدادى .. والاستجابة المرجوة أو ما يحل محلها - كثيرا ما تحدث .. وهنا تبدأ الميثولوجيا تتدخل لتحاول أن تبحث عن تفسير للآدمى كيف وبأى أداة بين أدوات الأهواء وغاياتها - نتجت تلك الاستجابة .

الفاعلية المزعومة سحرية

يضيف سانتايانا أن السحر على معنى ما - هو والدة الفن وحيله . والفن هو السحر الذى نجح واستقر ، ولهذا السبب لا يلجأ أحد للسحر كسحر فيما له فن وحيل فنية ، ولا إلى الصلاة أو الدعاء لإنجاز شيء يعرف هو كيف ينجزه بنفسه .. فإذا أخفق الفن وحيله ، وإذا استمر ضغط الحاجة - يلجأ الآدمى إلى السحر فيصلى أو يدعو حينما لا تعود له سيطرة على الحدث إذا كان حدثا ذا قيمة بالنسبة له .. فالصلاة ليست بديلا للعمل ، بل هى جهد مناشد لإضافة اقتدار يتجاوز الاقتدار العادى للشخص .. وليس البليد الكسلان هو أكثر الناس صلاة وأرقهم فيها ، بل إن أكثرهم صلاة ودعاءً - هو أكثرهم اهتماماً .. الذى عمل بجد واجتهاد بحيث لم يعد يطيق أن يتحمل الإخفاق والهزيمة !

الألفاظ اللاهوتية

لا يوجد فى اللاهوت باب أقل حظًا من التوفيق ، كالباب الخاص بالفاعلية المادية للصلاة والدعاء .. فالواقع يكذب أن اللعنات تجلب الأذى والدعوات تجلب الشفاء وأن أكثر الجيوش صلوات ودعاء أكثرها انتصارا فى المعارك .. فالواقع ضد اللاهوت فى هذا مهما جادل اللاهوت وشرح وفسر .. بل المنطق الجدلى أيضا .. فالرب - لابد - يعرف ما نحتاج إليه قبل أن نطلبه ، وهو يعرف بكرمه ما قرر أن يفعله من أجلنا .. فالدعاء فى عالم تلحظه عين العناية الإلهية - أمر زائد ومظهرى كلية ، علينا أن نقوم به كدور لنا فى الرواية ليس فيه القيمة الأخلاقية التى نفردها إليه .. وحين لا ينجح الدعاء نقول إن ذلك خير لنا من نجاحه .. وهذا إمعان فى الإحالة .. والصعوبة هنا أشد من الصعوبة التى يجدها الكثيرون فى مذهب الحتمية ..فإن هذا المذهب يجعل الأشياء

كلها لازمة ويترك القيم فلا يمسها .. وبالرغم من أن القيمة تفقد فاعليتها إذا لم تعبر عن قوى طبيعية مهيأة لذلك من قبل، فإنها من الوجهة المعنوية لا تتعرض للإبطال والتكذيب .. والتفاؤل المبنى على العناية الإلهية لا يكتفى بتعيين الأحداث مقدما ، بل يخصم القيم ويقلل من كل أمنية من أمانى الآدمى، ومن كل هزة لضميره ، وكل شوق إلى أن تكون الأشياء أفضل مما هى عليه ، ويجعل ذلك إساءة أدب عمياء إن لم يكن كبيرة من الكبائر .. فليس لك أن تدعو بأن تجىء مملكة الرب ، بل يجب عليك أن تعتقد كعقيدة أنها قد جاءت بالفعل .. والميثولوجيا التى تبرر الدعاء بإعطائه فاعلية مادية تشوه كليةً فهم الدعاء ، وتجعله موضع سخرية .. لأنها تبعده عن قلب الآدمى الذى يُعبِّر الدعاء عن مأساته ويحيل الدعاء إلى عالم وهمى تحولت فيه الأمانى إلى أشياء واختنقت بذلك أهدافها !

لو كان للدعاء فاعلية لكانت فاعلية ميكانيكية

لن يتحسن الموقف إذا استسلمنا للتفاؤل التصوّفى ، وقلنا إن الدعاء يجتذب قوى علوية فوق بشرية إلى مساعدتنا .. بإعطائها إشارات بدونها لا تكون قادرة على الوصول إلينا .. إن اعتمدت خبرتنا على مثل هذا النظر ، فلن يكون فيه أكثر مما فى الاتصال المعتاد عن بعد .. وتكون الصلاة وسيلة كالحديث واعتراضه .. مما يمكن أن يكتشفه المخاطب الذى يتوجه إليه الحديث ، ويمكن أن ينشأ بهذا نوع من الدبلوماسية السماوية تنشىء أشكالا لا تبتعد كثيرا عن الديانات البدائية ، وتتحول الديانة بذلك إلى علم أو صناعة .. وهو ما ترغب الأرواح الأكثر غلظة أن تفعله بالديانة .. ولكن هل وظيفة الديانة .. حقا ، أن تؤثر فى القوى الخارجية وتستخلص منها نتائج معينة محسوبة أو قابلة للحساب ؟!

هل الديانة فن عملى كالطب العملى .. مجرد صناعة خفية غير أكيدة .. إن كان ذلك فالديانة تدين بوجودها إلى نقصها وعدم تطورها ، وإلاّ لصارت بتطورها فنا من الفنون المادية والاجتماعية التى تتفق معها فى الجوهر ، ولصارت الديانة الناجحة كالسحر الناجح فنا لاستغلال العالم واستثماره !!

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

فوائد الدعاء الحقيقية

والذى يمكن أن تبلغه الديانة الناجحة ، هو التأمل والمثالية والشعر بالمعنى الذى لكلمة الشعر حينما يحيط الشعر بجميع الحياة الأخلاقية القابلة للتصور والتصوير .. وهذا الذى تستهدفه الديانة ـ واضح فى الدعاء ، وفى الفاعلية التى يمكن أن تكون للدعاء .. ففى الدعاء المقبول يمكن أن نقول إن الروح تحقق ثلاثة أمور مهمة لسعادتنا .. تنسحب إلى داخلها وتحدد ما هو خير لها ، وتوطن نفسها على مسايرة قدرها ، وتسير فى نموها على وفق المثل الأعلى الذى تتصوره .

الروح تجلَى مثلها الأعلى وتزيده اتضاحا

وإذا كان الدعاء يصدر عن احتياج ، فإنه بطبيعة الحال يركز على ما من شأنه أن يكفى ذلك الاحتياج ويشبعه. وهو أحيانا لا يفعل أكثر من التعبير والإشادة بما هو مراد .. على أن هذا المراد هو الألزم والأفضل . وهذا المطلوب غالبا ما يكون خاصا .. وقد كان ذلك كذلك حتى حينما دعا سقراط الآلهة أن تجود بالأفضل ، وهو دعاء لو لم يكن خاصا - لكان مجردا من المعنى والطعم من رجل كسقراط قضى عمره فى تحديد ما هو الأفضل .. على أن كل خير خاص يقع حتما فى مجال علاقات وروابط وله مضامين .. بحيث إن العقل الذى يركز عليه وعلى استحضاره وحضوره ، يجد نفسه بطبيعة الحال مشتبكا بخلفية ذلك المجال .. جائلا فيها .. وقد يقابل خيرا أعظم " أو شراً " ، يجعله ذلك المراد شيئا ليس منه مفر .. فالتردى الحاد فى كل مراد يراد من شأنه أن يوسع ويعمم التطلع حتى يشمل حياة مثالية .. فمن كل نقطة نبدأ

منها السير نجد أن حدود وتخوم السعادة الفانية تبرز بسرعة وتبين بوضوح .. فالدعاء الذى تبعثه حاجة ملحة يتخفف من مضايقة هذه الحاجة بإدماجها فى الحاجة العامة للروح وللنوع الإنسانى . عندئذ يقوم الدعاء بتهدئة وتسكين الأهواء فى قيامه بالتعبير عنها ، ويميل بالإرادة إلى التوافق مع العقل والعدل .: شأنه فى ذلك شأن كل تحويل مثالى .

الرضاء بما لا يمكن تفاديه

والمثل الأعلى العام الشامل ، أصعب تحقيقا من المثل الأعلى الخاص .. فقد تهطل الأمطار المطلوبة ، وقد لا يحدث الموت الذى خيف حدوثه .. ولكن مملكة الرب لا تأتى . وفى جوهر الدعاء ذاته تصور إمكان الرفض . من جهة لأنه لا معنى للتوسل لإحداث أمر سيحدث حتما بغير توسل ، من جهة أخرى لأن إمكان الإخفاق ظرف من الظروف التى يتم بها تصوير المثل الأعلى : ما الذى أدعو به بعد ذلك إذا أخفق هذا الدعاء ؟ ونظام الطبيعة معروف جيدا فى كثير من جوانبه ، وواضح أن المثل القابلة للتحقيق يجب ألا تتخطى حدودا معينة ، والمثل الأعلى العملى - وهو أفضل ما يمكن استهدافه مع مراعاة الظروف من طريق الدعاء - لا يجوز أن يكون تمردا على المقدور والقضاء .. والمطابقة عنصر فى كل ديانة والطاعة والخضوع عنصر فى كل دعاء وصلاة .. لا لأن كل ما يجب وجوده هو الأفضل ، بل لأن أفضل ما يسعى إليه

ـ حسب العقل ـ هو ما يقع فى دائرة الإمكان وما يتفق فى الرحم العـــام للوجـــود . " لتكن إرادتك على الأرض " أو "ولتأت مشيئتك " .. إذا بقيت دعاء فإنها يجب ألا تهبط عن معناها الأصلى .. وهو أن المثل الأعلى الذى لم يتحـقق .. يجب أن يتحقق لأنه تعبير عن الأمل فيما هو الأفضل ، وليس تعبيرا عن الاستعداد للرضاء بأى شىء .. ومع ذلك فما لايمكن تفاديه يجب قبوله ، لأن تغيير الإرادة البشرية أيسر من تغيير قوانين الطبيعة ، ونظام العقل عن الرغاب المسرفة ، وترويضه على أن يجد الخير فيما تقدمه الحياة حين تكون الحياة لائقة فى حدود الإمكان .. ذلك جزء من الحكمة والديانة .. فالصلاة والدعاء ـ حين يواجهان المثل الأعلى للخبرة والقدر ـ يتجهان إلى جعله عمليا وذا فاعلية وأكثر تراضيا .

الدعاء يربى الحياة الروحية بتصورها فى إسقاطاتها(*)

الإحساس بحدود الآدمى ، يجد ما يقويه فى مثال " الرب " .. وهذا المثال ليس إلا مثل الآدمى خالصا بريئا من تلك الحدود التى يقبلها الرجل المتواضع العاقل .. ولا يكف الروحانى عن الإحساس بوجود تلك الحدود كنقص وقصور . فالآدمى فانٍ وكيانه الحيوانى والاجتماعى مبنى على هذه الحقيقة ، مما يتعين معه أن يكون مثله الأعلى قائما على هذا الأساس ، وأن يستخلص منه أفضل ما يمكنه .. ولكن الخلود عنده وبصفة أساسية أفضل .. فما هو خالد - حاضر دائما على صور شتى فى العقول النبيلة .. فالآلهة خالدة والحديث

* لا يقصد المؤلف المفهوم الدينى للروح وإنما يقصد المعنى الخير الدائم الذى وراء الأشياء والأحداث والذى يعطى الحياة قيمتها والذى تحجبه ظواهر الصراع والعشوائية عن العيون.

بلغتهم فى الدعاء والصلاة يعلم الآدمى أن يرى الأشياء رؤية الآلهة لها ورؤية العقل لها .. لأن العقل لا يرى إلاّ ما هو فى صور الدائم الخالد . والآلهة لا تحترم الأشخاص (الوجوه) فهى عادلة .. والمثل الأعلى للآدمى يجب أن يكون كذلك . والدعاء إذ يتجه إلى الرب إنما يتمثل جلال العقل الإلهى واستخارته إلى أن يتخلل عقل الآدمى الفانى !!!

هذه الفائدة لم تبد واضحة فى كل العصور .. لأن الناس بدلا من أن يقرّبوا ويشبّهوا الزمنى بالأبدى ، قربوا وشبهوا الأبدى بالزمنى .. لأنه أقرب إلى التعصب القلق فى الديانة من الشعراء والمثاليين .. ذلك على حين أن العبادة الوثنية كانت مليئة بروح أكثر هدوءا ، لأن الآلهة كانوا علانية طبيعيين بلا خفاء .. يمكن أن يتحولوا إلى أفكار مثالية حقا .. كانوا يجسدون أحسن ما فى الحياة ، ومن ثم لذّ للناس أن يروا تماثيلهم فى كل مكان ، وأن يحفظوا أسماءهم وحكايتهم حيّة فى أذهانهم .. لم يبعدوا بالقوة أو النفوذ ، ويحولوا بين الآدمى وبين سعادته المناسبة له ، ولعلهم أكملوها بحضورهم .. كانوا يسكنون جميع الأمكنة ، ويغيرون أشكالهم مثل

جميع الأحياء حسب المكان والظرف ، فأبرزوا وبينوا أن جميع الموجودات إذا كانت كاملة حسب نوعها - يمكن أن تكون كاملة الخير .. وكان تعبدهم درسا دائما فى الإنسانية والاعتدال والجمال .. كان عكس ذلك شيئا من الوحشية السابقة العقل - يطل كثيرا من وراء صفائهم ، كما يطل من بين أطباق الروح الآدمية ، ولم يكن ينقص ظهورهم ذلك التوحش الرهيب الغامض . لا بد أن يكشف المثال عن تلك القوى الأولية التى يرتكز عليها ، ولكن العقل بوجوده يقوم كالساحر بترويض جنون الآلهة وردهم إلى الانتظام المطرد فى التعبير عن أنفسهم وعن الخير بعامة .

مثوبة الانضباط والتأمّل
هى ذات الانضباط والتأمّل

والدعاء فى النهاية إن لم يحقق شيئا ماديا ، فإنه تحققٌ لشىءٍ روحى .. فهو لا يجلب المطر ، لكنه إلى أن يهطل المطر قد يزرع الأمل والقنوع ، وقد يهيئ القلب لأى نتيجة ، أو يفتح نظرة الآدمى فيرى فيها نجاحه فى وجوده المحكوم بشروط ، وقيمته المشروطة ، والشمعة التى تذوب أمام أيقونة لن تمنع سوء الحظ ، لكنها تشهد وجود أمل صامت ، أو تخفف حزنا بالتعبير عنه ، وقد تلطف قليلا من مرارة الإحساس بالعجز التى ربما أحرقت عقلا يعى الانتظار المادى دون أن يعى سلطان الروح وقوتها .

فالعبادة والابتهال والتوكل على الآلهة ، تعبير عن هذه الأشياء تعبيراً ملخصاً فى تمثيل أو استعارة أو كناية موفقة. فالعجز المادى يجد التعبير عنه فى التجائنا إلى الرب ليعين ويساعد . والسلطان الأخلاقى أو الروحى يجد التعبير عنه

كذلك فى الاعتقاد والإيمان بقدرة الرب الشاملة .. هذا الاعتقاد قد تبدو الأحداث مكذبة له ، وذلك إذا كان أخذنا قدرة الرب الشاملة على أنها هى السيطرة السحرية المادية على الأحداث الناتجة عن القيم التى ترتبط بهذه الأحداث .. ولكن المؤمن يعرف بقلبه - رغم التفسيرات المختلطة التى يبديها لمشاعره - أن الجدوى المادية المنتظرة ليست هى محك الاختبار لإيمانه ، وأن إيمانه باق رغم أى إحباط خارجى .. فالواقع أن الإيمان ينمو بهذا الانضباط ، ولا يصبح حقا إيمانا دينيا إلا إذا لم يعد توقعا أحمق لأشياء غير محتملة الوقوع ، وإلاّ إذا صعد على درجات الإحباط المادى إلى منطقة السلام والاطمئنان الروحى .. فليس القربان مضاربة ، وإنما هو وسيلة لخلاصنا من حب تلك الأشياء التى يطلب منا تركها والتضحية بها ، ثمرة لالتجائنا إلى الرب التجاء قابلناه فيه وجها لوجه إذا كنا سنبقى غارقين فيما كنا نستمتع به بدون الرب .. وفائدة السحر الحقيقية وهى المبرر له - أنه خدمة لشهواتنا الطبيعية .. يحبسنا فى منطقة فوق منطقة الوسائل الطبيعية ويعوّدنا على جو مخلخل الهواء فنتعلم أن

نتنفسه ونحب عملية تنفسه فى ذاتها .. وفى الوقت الذى نكتشف فيه الآلية فى الديانة وأنها آلية عديمة الجدوى .. قد نبدأ الإحساس بالخجل من فكرة استعمال الديانة استعمالا آليا ميكانيكيا .. لأنه إذا كانت محبتنا للآلهة مجرد وسيلة وحيلة ، فما هى إذن الغاية من الحياة ؟ .. لأنه عندما تفقد صناعة العجائب والمعجزات ـ الثقة فيها ، قد تزول من الوجود تلك الرغبة الطفلية فى عمل المعجزات . وقبل أن نتعب من محاولة إخفاء أننا فانون ، قد نفطن إلى خلودنا المقترن بفنائنا ..فحين ننتظر الأمر بأن " نحمل فراشنا ونمشى " ، قد نسمع صوت القائل : " ذنوبك قد غفرت لك " !

علم الأسطورة "الميثولوجيا"
موضع الحكاية فى العقل

يورد سانتايانا فى الفصل الرابع ، أنه كان للفكر البدائى صورة الشعر ووظيفة النثر . يميز الموضوعات عن الخبرة التى تكشف عنها ويشتاق إلى معرفة الأشياء على ماهى عليه، بيد أنه لطابعه الشعرى يعزو لتلك الموضوعات جميع الصفات التى تحتوى عليها الخبرة البشرية بتلك الموضوعات ، ويبنى بهذه الصفات ومنها صوراً فى كل اتجاه بغير تمييز بين ما هو ثابت مستمر وفعال وما ليس كذلك ..هذا الاعتياد البدائى باقٍ فى "الميثولوجيا" التى هى ملاحظة الأشياء ملاحظة مثقلة بكل ما يمكن أن توحى به الأشياء إلى التخيل الدرامى .. فالأسطورة ليست شعرا واعيا ولا علما منتجا . لكنها الجذور المشتركة والمادة الخام للأمرين معا . فالشعر الحر للإنسان البدائى شىء أفقر من أن يقبل عليه ويهواه وعيناه المحملقتان ترقبان بالتفات شديد ذلك العالم الرهيب الغادر . لم يكن لديه الخبرة الكافية اللازمة للعلم الصرف ،

ولا القدرة الكافية على التحليل والتذكر والتجريد .. كانت روحه فى عجلة وفى حيرة شديدة من أمرها تزدحم حولها الأشباح والأطياف ،

لا تقوى على أن تتابع بإصرار مسار الخيوط داخل ذلك التيه .. فنظرته إلى الأشياء مثقلة لدرجة هائلة بما هو غريب .. ووصفه لها نصفه أو أكثر حديث نفس ، لكن تعبيره عن خبرته لهذا السبب نفسه كان تعبيرا كافيا شديد الإخلاص .. والاعتقاد الذى جمعنا بينه وبين الديانة ، هو فى الواقع من متعلقات العلم . فالأساطير ليست معتقدات بهذا المعنى .. دائما هى تصورات ومفاهيم .. وطلب الإيمان بفكرة يتضمن المقابلة بين تفسير وبين معرفة أنه توكيد بأن الفكرة صادقة معرفةً وعلماً . والأساطير لا يمكن أن تزدهر فى هذا الجو الجدلى لأنها تتعلق بمستوى فكرى أعمق وأكثر براءة حينما كان البشر يحملقون باهتمام شديد فى الوجود كله بلا تمييز .. يقبلون ويسجلون نواتج العملية العقلية بنفس القوة التى يقبلون ويسجلون بها الأشياء الخارجية التى يلاحظونها ويمزجون نماء هذه بنماء تلك فى دراما واحدة عنيدة غريبة الأطوار والأهواء والأجواء !

الأسطورة تحتاج لعبقرية

لا يمكن إنتاج ميثولوجيا جيدة دون ثقافة واسعة وذكاء كثير . لأن الغباء ليس شعرا وليس شاعريا .. وليست "الميثولوجيا" أساسا منزلا فى منتصف الطريق بين ذلك الغموض الحيوانى فى روح الآدمى وبين المعرفة العلمية .. يمكن أن نتصور أن جنسا من الأجناس ليس مليئاً بالأحلام كجنسنا يستحيل إغراؤه باستعمال المقولات النفسية والعاطفية فى قراءة الطبيعة، وأنه من البداية احتفظ بملاحظاته حسية خالصة ، وشادها على نفس مستواها رياضيا وجدليا . مثل هذا الجنس لا يمكن أن يكون له عبقرية درامية أو غنائية ولا يمكنه حتى أن يعرف العلم الطبيعى الذى يحتاج إلى خيال . لا يمكنه أن ينجح فى تحقيق شىء وقد حرم اليهود أنفسهم من ميثولوجيا غنية فعاشوا بلا علم ولا فن تشكيلى ، والصينيون الذين يبدو أنهم خرقوا الشرعية

فى الفنون الأسرية وربّوا العاطفة دون أن يمروا بعواصف المخيلة التى أنهكتنا . ظلوا طول الزمن بغير علم جاد أو فلسفة .. بينما الإغريق تلك الأمة التى لديها أغنى الأساطير وأشدها عربدة وعدم مسئولية ـ كانوا أول من تصور الكون تصورا علميا وأول من كتب التاريخ والفلسفة على أساس عقلانى .. فالحيوية فى أية وظيفة عقلية تكون نافعة ومفيدة لحيوية العقل ككل . والأوهام المصاحبة للميثولوجيا ليست فى النهاية ضارة ، لأن الأفهام تجد فى الخبرة علاجاً طبيعيا يشفى من الوهم رغم أنه علاج

مؤلم . والإسراف فى الغلط يظل غير مستقر إلى أن يصبح غير مؤذٍ لا ضرر منه لأنه أقصى فى مكان بعيد عن ميدان التطبيعات والخبرات .. فحيث يمس الغلط الخبرة يصبح قصير العمر ويكون منبها .. فحالة الاتزان التى يوجدها الغباء تجعل الغباء دائما مؤبدا ، وتطورالميثولوجيا يدل على أن الآدمى لديه اهتمام عميق فعال بنفسه وبالعالم وأنه حاول أن يربط بينهما وأن يفسر أحدهما بالآخر .

فالأسطورة مقدمة طبيعية للفلسفة ، لأن عشق الأفكار هو جذر هذه وتلك . وكل منها مكوّن من أشياء يعجب الإنسان أن يفكر فيها ويتأمل !

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

الأسطورة دائماً نصف خديعة

فى هذا الإطار، يورد سانتايانا أن الوهم الموجود فى التفكير الأسطورى ليس دائما عاما شاملا كثيفا كما يُشاع .. إذ الفطنة والخبرة العملية حين تعامل الحكاية كواقع ـ قلّما تساير القصيدة إلى نهاية الشوط . نعم يوجد جنس ما يدعى المعرفة مهمته تحويل المثالى إلى مادى ، ولكن بقية العالم مكرا أو عنادا تجتهد ألا تصاب بعدواه . وقد تتسرب الأسطورة إلى اللغة وتتخللها كلها .. لأنها أيضا لغة البشر المرتاحين للأسطورة المستسلمين للأفكار الأسطورية ، ولكن الاختلاف بين اللغة نفسها وبين ما تعبر عنه باق لا يمحى بهذه السهولة .. فبرغم اعتياد العادات الكلامية أو اللفظية ، فإن الناس قلما تأخذ الأسطورة بنفس المعنى الذى تأخذ به الواقع العملى .. وكل المذاهب التى ازدهرت فى عالم البشر عن الحياة بعد الموت والخلود ، لم تغيّر شيئا من شعور البشر

الطبيعى فى مواجهة الموت .. وهو شعور كان ينبغى أن ينقلب إلى عكسه لو أن تلك المذاهب قد أخذ بها الناس على نحو جدى فعلى .

والبشر كلهم تقريبا يؤمنون بوجود العناية الإلهية ، ولكن هذه الحقيقة لم تقو على إزالة المخاوف والمكاره من قلوبهم إزاء الأحداث .. فلو أنهم وثقوا ثقة حقيقية فى هذه العناية لتركوا تلك المخاوف والمكاره وأهملوها على أنها ضرب من العمى والتمرد والكفر ! . والدعاء أو الصلاة عند سليمى العقل من البشر - لم يلغ قط - الجهود العملية - لتحقيق أغراضهم .. وهذا دليل على أن مجال التعبير اللغوى لم يخلط الناس بينه وبين الواقع .. لأن هذا الخلط لو حصل بين النظرية وبين الواقع العملى ، لتحولت الميثولوجيا إلى جنون صرف لم يحدث هذا إلا نادرا . فقد قبل الناس الأساطير ومعها قليل من الملح جعلها قابلة للهضم وزادها إساغة .

والأسطورة تجتذب الآدمى فى - بدايتها - دائما ..

تجتذبه بكونها تنطبق على ماهو معروف - لا بكونها كشفا عن مجهول لا علاقة له بالموجود .. وهى حين تفقد قيمتها الرمزية وتهبط فتصبح مجرد معلومة زائغة كاذبة ، لا يبقيها إلا الاعتياد الغبى الذى لا يتأثر بشىء ولا يتحد مع شىء . إن الأمثال تبرر ذاتها بذاتها .. بينما العقائد تحتاج إلى من يدافع عنها ويترافع .. ومن ثم احتاج نتاج الأنبياء والشعراء إلى ما يحفظ عليه الحياة صناعيا - عن طريق الأساتذة المحترفين .. أما ما وُلد فى المخيلة وشُكل كى يعبّر عن خبرة عامة شاملة يسوّر هو ونواتجه الحقيقية بأسوار من الخداع والسفسطة وروح الحزبية والتعصب .وما يقال فى الدفاع عنه من براهين غير قابلة للفهم .. فيه اعتراف بعدم واقعيته ، وأن الدفاع عنه مجهود يبذل لطلاء شىء هو فى ذاته مسرف وغير قابل للتصديق بألوان تجعله أكثر قبولا !

جوهر الأسطورة.تفسيرى

فقبول الأسطورة - أصلا - لم يكن قبولاً لعدم صدقها .. لأن عدم صدقها واضح مكتوب على وجهها .. فهى قد قبلت لأنها فُهمت أو أُخذت كتعبير عن الواقع تعبيرا مجازيا فصيحا . كانت وظيفتها إبراز طور من أطوار الخبرة فى عمومه وناتجه الأخلاقى ، كما يبرز كل شىء على خريطة جغرافية لكى يُرى على نحو أفضل فى علاقاته الصحيحة .. فإذا هبطت هذه الرموز - لحظة - إلى مستوى الجارى ، فقدت معناها ومنزلتها .. لأنها عندئذ تدّعى أنها موجودة وجوداً جسديا ، وهو كذب محض .. ولأنها عندئذ تصبح عاجزة عن أن تخبرنا بشىء عن المعالم والشكل الواقعى للحياة ! .. وهذا الغلط إذا بلغ مداه أبطل كل خبرة وأوقف مسيرة الحياة ، وأصبح كل تجاوب بشرى وكل رد فعل تجاوبا مع عبارات وتعابير خاليا من شىء يُعبر عنه ، وصار جميع الخلق أشبه

بأولئك الفلاسفة الذين يعيشون على الألفاظ أو بالأطفال التى تحفظ كتب الأدعية !

والوظيفة الحقيقية للأفكار الأسطورية هى التصوير والتفسير .. تصوير وتفسير الأحداث بصيغ تتعلق بالروح والفكر . فإن فى الأشياء فوائد تهم الإرادة .. وهى فوائد مباشرة وواضحة . على أن الجهاز الداخلى لنفس هذه الأشياء معقد غامض ، ولذلك نحن نتصور الأشياء بطريقة خشنة سطحية من طريق وظائفها ومنافعها العملية المحتملة ونعطيها نصيبا من اهتمامنا على قدر المصلحة التى توقظها فينا هذه الأشياء .. وهذا النصيب يكوّن فى تفكيرنا ما نسنده نحن إلى هذه الأشياء من طابع داخلى أو روح . وهذا الطابع أو الروح هو محض أسطورة كوّناها من خلع الصفة الدرامية على الأحداث حسب الخيال والمصلحة .. ومثل هذه الأفكار قد تكفى على حالها إذا كانت تغطى جميع الفوائد المحتمل أن تحصل عليها من الموضوعات التى تقدم لنا فى هذا التصوير الدرامى . ولكن أكثر الميثولوجيات كفاية ـ تظل

ميثولوجيا دائماً . فهى بعكس العلم - لا تضع الأشياء أمامنا فى نفس الصور التى ستكون لها حينما تنكشف تدريجيا للخبرة . فالأسطورة تعبير وليست نبوءة . والأسطورة لهذا السبب شىء يرتاح العقل إليه .. إنها تفسير مثالى تهضم فيه الظاهرة وتتحول إلى طاقة بشرية وإلى نسيج تصويرى فى المخيلة .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

مقابلة الأسطورة بالعلم

وعلى نقيض ذلك ـ تصرخ الصيغ العلمية من أجل إعادة ترجمتها إلى أشكال قابلة للإدراك والحس .. لأنها تشبه الحبال المشدودة التى يستطيع رجل أن يسير عليها ، لكنه لا يستطيع أن يبقى عليها واقفا ساكنا . تلك الصيغ القلقة تؤدى مع ذلك إلى حقائق واقعية وتعيّن علاقاته التجريبية . ذلك على حين أن العقل وهو راض مرتاح إلى أسطورة .. يحتاج أن يحصل على كل الملاحظة والخبرة التى وراء الأسطورة .. لأنها لا يمكن حملها على جمع أكثر مما جمعت . والأسطورة الكاملة المستقرة إذا قامت تقوم على مسح ورصد مطرد لكل المصالح المؤثرة فى نظر من رسم الأسطورة .. فكل وحدة منها مادية أو سياسية لها طابع ملائم موافق لنفوذها العام على فكر مبدع الأسطورة .. ويعبّر الرمز أو الشكل عندئذ عن هذه الوجودات بذلك التعبير الفصيح .. وإذ كان هذا الشكل

لا يوقع أحدا فى الغلط عملا جاز أن يوصف بأنه صادق . لكن الصدق فى أى أسطورة صفة ثابتة أساسية ومعيار للقيمة السامية ، وليس صدقا حرفيا أو منطقيا .. فالشكل لا يمثل حقيقة وجودها الداخلى كما يشتهى أن يعرفها عقل مستقيم مباشر الهدف خالٍ من الأنانية .. ولذلك فالأسطورة تترجم إلى لغة الهوى الشخصى ـ الابتسامات والقطوب التى يلقاها ويقابلها فى هذه الدنيا .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

أهمية العامل الأخلاقى

على هذا يوجد فى الأسطورة عاملان : وعى أخلاقى متصل به تصور شاعرى للأشياء .. وكل من هذين العاملين متغير .. وتغيرات العامل الأخلاقى وإن كانت أكثر خفاء ليست أقل أهمية من العامل الثانى .. ولو أن الأسطورة بدأت من إدراك واضح للقيم الإنسانية ، لكسبت مكسبا هائلا من حيث المعنى والأهمية .. لأن الصور التى رسمتها وأقيمت عليها مهما كانت مغلوطة من حيث الأفكار الخارجية ، فإنها كانت تبرر فى الحياة الدنيا مثوبات ومكافآت ومثلا عليا .. فما وقع فيه دانتى من سوء المعرفة بالنظام الكونى وسوء المعرفة بالتاريخ - لم ينتقص من قوة النفاذ الروحى لأفكاره وإن انتقص من قابليتها للتحقق .. فلو أن الطبيعة والأقدار كانت كما تخيلها دانتى ، لظل تصوره للقيم المعنية كاملا صحيحا .. لأن الفلسفة الأخلاقية التى اتبعها أرسطيّة

عقلانية ـ فقصيدته تضمنت حكمة حقيقية وإن كانت فى تصوير أو عرض خيالى متوهم . فهى تصف حياة العقل فى عالم وهمى .. ونحن لا نحتاج إلا لتغيير ذلك العالم إلى العالم الفعلى الذى نجد أنفسنا فيه ، وأن نترك الروح بعد أن حوسبت إلى أعماقها وطُهرت كما تركها دانتى .. تسأل أسئلتها وتأخذ الإجابات عليها ـ خلال هذا الحلم الأكثر ثباتا واطراداً .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

اغتمار الأسطورة

تجول الأسطورة وتنتقل بين العامة ، فيميل العامل الشاعرى فى الأسطورة إلى السيطرة .. فالاستمرار فى الجدل أو الدراما إلى أن تصير أسطورة ، أيسر من العودة لعرضها مرة أخرى فى محك الوقائع وصولا بها إلى فهم أكثر أصالة .. فالشاعر يصنع الأسطورة والعظائى ينفذها . ولذا نجد المؤرخين واللاهوتيين يناقشون الأشكال المختلفة التى اتخذتها الكائنات الأسطورية والمضامين المنطقية والأخلاقية لهذه النوات .. وكان أولى لهم أن يلتفتوا إلى العامل الأخلاقى .. وأيًا كانت متعة الأسطورة فى ذاتها ، فإن قيمتها الدينية تنحصر كلها فيما تكشف عنه من وظائف طبيعية فى الحياة الآدمية . فليس جمال الإله هو الذى يجعله أهلا للعبادة ، وإنما ما يمنحه من أفضال وألطاف . فإلى جوار أبوللو وهو إله له وظائف أخلاقية استدعت له عبادة

حارة قوية جعلت منه شخصية أخلاقية ، نجد هليوس أو فيتون - وهما شخصيتان شعريتان يعبران عن الفعل المادى للشمس - لم يلتفت إليهما اللاهوتيون .. ولو فعلوا لكانا صالحين كأبوللو لإثارة قضايا سيكولوجية لم يكتشف أحد فى ذينك الإلهين الصغيرين ذلك العامل الأخلاقى .. فلم يحظيا للتعريف بهما إلا بأوصاف شعرية جسية لفظية .. خلت من الاهتمام بحاجات البشر وآمالهم ، فى حين أن أبوللو على الضد فى تمثيله للشمس وتجسيدها قد جسد أيضا ارتباط الشمس بخير البشر وسعادتهم : الحيوية ، الشفاء ، الاستنارة ، المسرة التى تفيض إلى قلب الآدمى من أسمى مصدر لوجوده المادى .. كل ذلك ماثل على أجمل صورة فى شكل الإله وأسطورته .. فديانة أبوللو من ذلك الوجه إذن ديانة صادقة بقدر ما تكون الديانة صادقة .. والميثولوجيا التى أوجدت ذلك الإله اعتمدت على إحساس عميق راصد للقيم الأخلاقية ، ورسمت صورة حية وإن كانت جزئية للمثل الأعلى تربطه بموقعه الطبيعى .

والوظيفة الأولى للميثولوجيا ، هى تبرير السحر.. فالأمل الواهى الذى تتعلق به الخرافة وغريزة المقامر التى تقرأ فى الظاهرة أمارات عطف على حظوظ الآدمى ، لا يمكن أن تعبر عن نفسها بغير أن تبحث عن غطاء ومبرر تجده فى أسطورة من الأساطير .

الأسطورة تبرر السحر

يمكن تصور وتحديد أى وظيفة سحرية بسهولة ، إذا أسند إلى الموضوع مقاصد ونوايا معادية أو موالية مع العادات الآدمية فى الهوى والتفكير .. وبسبب نقص المصادر والملاحظة ـ لا يستطيع العقل أن يرفض السحر رفضا كليا .. والعقلاء مضطرون ـ لهذا ـ إلى محاولة جعل السحر قابلا للفهم قدر الإمكان ، وذلك بتقريبه من قوانين العمل البشرى ، وجعله مما يمكن معرفته والاعتياد عليه .. فصار السحر نوعا من النظام تحكمه قواعد خاصة به ، واكتسب صفة المواطن فى مملكة العلم !

الأسطورة قد تكون ميتافيزيقية

مثل هذا السحر المعترف به الذى يجد من يدافع عنه ، يتخذ فى العادة صورتين .. فالمعجزة حين تفسر دراميا تشبيها بالحياة الآدمية تكون فى نطاق الميثولوجيا ، وحين تفسر تشبيها للمنطق الجارى أو للعلم الطبيعى تكون فى نطاق الميتافيزيقا أو البثوصوفية .. أما النوع الميتافيزيقى من الخرافة فلم يكن له قط جذور عميقة فى العالم الغربى .. فالأسرار الفيثاغورثية وأنواع التنويم المغناطيسى رغم ظهورها وتعلق الناس بها بين وقت وآخر ، إلا أنها تنوى بسرعة فى الجو المتارحى الصحى .. حتى أساطير أفلاطون لم تقدر على الازدهار ، إلا بعد أن غيرت طبيعتها وصارت ميثولوجيا درامية عادية .. أى نظاما سحريا ، أصبحت فيه كل القوى التى كانت من قبل اصطلاحات فى الخبرة الأخلاقية مجرد ملائكة وشياطين شخصية مشابهة بالأسرار

المسيحية : هذه الطقوس السحرية لو نشأت فى الهند بين شعب ذى عقلية ثيوصوفية .. ربما أسفرت عن إشارات كاشفة لأسرار غيبية عالية ، ففُسِّرَ العماد على أنه رمز للإرادة التى تطهرت وانمحت ، والتناول على أنه رمز للخلاص من الشخصية .. ولكن الشعوب الأوروبية رغم أنها سريعة التصديق .. إلا أنها بطبيعتها واقعية .. ففى تفسيرها لما فى مواسمها واحتفالاتها من أسرار ، لم تلجأ إلى الرمزية الميتافيزيقية ، وإنما لجأت إلى دراما مادية تاريخية .. فالتبادل صار لقاءً بين الروح المؤمنة وبين شخص المسيح ، والعماد تنفيذا قانونيا لعقد أسطورى انعقد بين الأب والابن .. فبدلا من تفسير ميتافيزيقى وجد السحر الكائن ما يلزم لتبريره فى الأسطورة .

الأساطير تظهر جاهزة الصنع
فى أجزاء من النسيج الاجتماعى

كانت الميثولوجيا لدى ظهورها أول مرة فى الآداب الغربية على صورة عالية فى التعبير .. الآلهة شخصيات متميزة بصفات وتواريخ يصعب تخمين مصدرها .. لا تشير إلى تفسير معقول ، فكان المؤرخ فى مثل موقف الطفل الذى ورث ديانة عظيمة . الآلهة وأفعال الآلهة واقع سابق مسلم به فى عالمه كأى واقع آخر .. كائنات موضوعية يضعها سير الأمور المعتاد أمامه فى طريقه ، ويبدأ اتصاله بها بعلاقات اجتماعية يواجهها باحترام وطاعة أو بتحد خالٍ من المبالاة .. تمر مدة طويلة قبل أن يفكر فى أن يسأل أو يثبت هل هى موجودة .. والموقف الذى يتخذه إزاءها يجعلها منذ البداية عوامل فى عالمه الأخلاقى .. فكثير من التشكك الحاصل بعد ذلك أو من

التفلسف العقلانى - لا يمكن أن يمحو آثار ما خلفته علاقته الوثيقة السابقة بآلهة ألفها .. ومن العسير العسير أن يصبح من موضوعات العلم ما هو أساساً عوامل فى عملية أخلاقية . فكل الأفكار عن الديانة تبقى لهذا السبب ملونة بألوان الهدى والعواطف .. يُحَسّ أنها - أولا وقبل كل شىء - نوع من اختبار الولاء ومؤشر من مؤشرات الفضيلة . وكلما كانت الأفكار السائدة عن الآلهة أكثر تشعبا وعدم قابلية لبلوغ أعماقها وأكثر عتامة وكثافة ، كلما كان من الصعب تكوين أى شعور عقلانى بشأنها .. فأكثر وأكمل استنارة تاريخية لن تكفى لإبعاد الظلال التى يُلقيها على العقل ذلك الوجود الخارجى والأخلاقى للآلهة . وعبثا نستبعد أسطورتهم ونزدرى الدليل الواقعى على وجودهم ونحن رغما عنا - نعيش معهم وفى حضورهم .

إنهم يريكون الضمير!

هذه الظاهرة التى تدعو إلى الرثاء ، خاصية من خواص العقول الدينية التى كبرت على عقيدتها التقليدية ، دون أن تصبح قادرة على أن تعيد ترتيب وتقرير الأسس الطبيعية والقيمة الأخلاقية لذلك النظام الثمين الذى لم يعد فى مقدورها أن تعتقده أو تؤمن به . فى هذه الأحوال فإن تلك الآلهة التى ماتت (فى عين الأسطورة) تترك أشباحها خلفها .. لأن القوى الأخلاقية التى كانت الآلهة تعبر عنها تظل بطبيعة الحال باقية ولكن خرساء .. وهى فى خرسها توحى وتشير بإصرار إلى رموزها المعروفة التى لم يعد لها قيمة .. ولكى نستعيد الحرية الأخلاقية - وهى ضد الحرية بلا أخلاق - تلك الحرية التى بدونها لايمكن للمعرفة أن تعطى فائدتها الطبيعية فى توجيه الحياة وقيادتها ، يجب أن نعيد اكتشاف أصل الآلهة ، وأن نردهم إلى مكوناتهم الطبيعية والأخلاقية ، ثم نعيد ترتيب هذه العناصر دون أى فقد فى أشكال ملائمة لتفكير أكثر نضجا .

الملحمة المسيحية

تقول قصة المسيحية - فيما يورد سانتايانا بالفصل السادس - إنه فى البدء كان ملك سماوىّ عظيم حكيم وخير ، تحيط به حاشية من الموسيقيين والمبعوثين نوى الأجنحة .. كان موجوداً من أزل الأزل .. عقد عزمه دائما على أنه حين تجىء اللحظة المناسبة يخلق كائنات موقوتة الأجل .. صورا غير كاملة لذاته .. على درجات مختلفة كان رئيسها الآدمى .. وذلك ابتداء من سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، تبقى زمنا غير محدود إلى سنة ٤٠٠٤ بعد الميلاد .. ربما كى لا يختل التماثل والتقابل فى حساب الزمن فى بداية هذه الدراما ونهايتها ، توجد لوحتان مجيدتان .. فى أولاهما طاعة لكلمة الرب .. اتخذت الشمس والقمر والنجوم والأرض بكل ما عليها من نبات وحيوان مواضعها الملائمة ، وظهرت الطبيعة فى الوجود بكل نواميسها ، وخلق أول رجل من طين بعمل

خاص قام به الرب ، وشكلت المرأة من أحد أضلاعه .. انتزع منه وهو غارق فى نوم عميق ، ووضعا فى حديقة فاكهة .. كانا كثيرا ما يريان الرب صاحبها يتمشى فيها فى المساء المنعش ، وقبل الرب أن يتجولا فيها ما يشاءان ، ويأكلا من ثمار ما غرسه فيها ما يريدان .. إلا شجرة واحدة لا يقربانها .. وسوّل لهما الشيطان أن ينتهكا هذا الحظر الوحيد فطردا من تلك الجنة مع لعنة على رأسيهما .. أن يعيش الرجل بعرق جبينه ، وأن تلد المرأة أطفالها عناءً ومخاضاً .. وحاز الأطفال من لحظة الحمل فيهم تلك الطبيعة المتمردة التى اكتسبها أبواهما وولدوا للخطيئة ، وليجدوا الفوضى والموت فى كل مكان داخلهم وخارجهم .. ولكن الرب حتى لا يندثر ما عملته يداه كليةً ، وعد أن يخلص حسبما يحب - بعض أبناء آدم ويعيدهم إلى حياة طبيعية ، وهذا الخلاص تحقق فى النهاية عن طريق أحد ذرية حواء .. يحطم بقدمه رأس الحية ، وسبقه أنواع كثيرة من الخلاص الجزئى ، فأنقذ نوح من الطوفان ، ولوط من سدوم ، وإسحاق من التضحية أو الذبح

(حسب العقيدة التوراتية) ، وموسى من مصر ، وأسرى اليهود من بابل ، وكل الأرواح المؤمنة من غفلة ووثنية الكفار .. فقد أفرزت قبيلة معينة وخُصت من أول الأمر بأن تُبقى حيةً ذكرى قرارات الرب ووجوده ، على حين تُرك بقية النوع الإنسانى لانحطاطه الطبيعى ، غارقين باطراد فى جرائمهم وغرورهم !

لم يفلح الطوفان فى إزالة تلك الشرور .. فقد أعيد العالم وجدد وظهرت الأرض فوق الماء .. وبقيت فى هذا التجديد وإلى الأبد آثار من النقمة الإلهية .. وإلى الطوفان كانت الطبيعة شديدة المتانة والقوة ، ولكن الفيضان الواسع الذى به غطى الرب الأرض بالماء لمدة طويلة ، خفّف وميّع جميع العصارات ، وولّد الهواء الذى صار أثقل وأشد رطوبة وعنصراً أخبث وأكثف للفساد والإفساد .. فضعفت البيئة الأولى للعالم ، وأخذت الحياة البشرية بعد أن كانت تمتد إلى قرابة ألف عام .. أخذت تقصر وتقصر تدريجيا ، وفقدت الأعشاب والجذور فاعليتها الأولى ، واحتاج الآدمى إلى طعام

أقوى فأكل لحم غيره من الأحياء ،وانتصر الموت على الحياة، وشعر الناس أنهم مأخونون بعقاب إلهى أسرع ، فغاصوا من يوم ليوم فى مزيد من شرورهم وخبثهم .. وتغيير طعامهم فى ذاته آية تدهورهم وانحلالهم ـ وأنهم مع زيادة ضعفهم زادوا افتراسا وتعطشا للدماء ، ومن ثم كان هناك روحان .. فريقان .. وكما قال القديس أوغسطينوس مدينتان فى العالم .. مدينة الشيطان ، وكانت أساسا فاسدة كافرة مهما احتوت وجمعت من حيل فى الفن والحرب أو الفلسفة .. حسرتها قناع مضحك ، وجمالها جمال مقبرة مخصصة ملعونة من الله ومن الضمير السليم .. لغرورها وقسوتها وبؤسها الخفى وجهلها بكل ما ينبغى حقيقةً أن يعرفه الآدمى المكتوب له الخلود .. وفى نفس الوقت قامت مدينة الرب ، جماعة كل الأرواح المختارة مقدما للخلاص .. مدينة مهما يكن تواضعها وعدم التفات الأنظار إليها على الأرض ،لها آلاف الآلاف من مواطنيها فى السماء ، ولها مصائرها وأصولها فى الأبدية وإن تكن تبدو ضائعة منسية فى بابل المشار إليها .. وإلى

مدينة الرب ينتسب الآباء الأول والأنبياء ، الذين ظلوا طوال حياتهم الضارعة المتقدة حمية وإخلاصا ، متعلقين بما بقى معهم من أصداء الوحى الأول ، منتظرين الوحى الأعظم الذى ينبغى أن يأتى .. إلى هذه المدينة كان ينتمى الرجال الثلاثة القديسون الذين أتوا من الشرق يتبعون النجم الذى توقف فوق الإسطبل فى بيت لحم ، وشمعون الذى تنبأ بخلاص إسرائيل الجديد ، ويوحنا المعمدان الذى شهد بهذا وقوّم الطريق من أجله ، وبطرس الذى كشفت له روح الآب فى السماء عن ألوهية السيد ، لأن الخلاص فعلا وحقا قد أتى عندما اكتمل الزمان لا كما تخيل اليهود الجسديون فى صورة إعادة بناء أرضى ، ولكن من خلال تجسد الابن فى رحم العذراء مريم وموته على الصليب ونزوله إلى الحميم ، وبعثه حيّا فى اليوم الثالث كما هو مكتوب .. ولنفس المدينة ـ مدينة الرب ـ انتمى جميع أولئك المؤمنين بواقعية وفاعلية رسالة المسيح .. الذين يعتمدون على قدراته ويتبعون وصيته بالحب .. الحب غير الأرضى . فالتاريخ جميعه فى أساسه ليس

شيئا إلاّ هذا التنازع بين هاتين المدينتين .. بين أخلاقيتين .. إحداهما طبيعية والأخرى فوق الطبيعة .. بين فلسفتين .. إحداهما عقلانية والأخرى موحى بها .. بين جمال جسدى وبين جمال روحى . هذا جسدى زائل والآخر دائم .. بين مجدين هذا وقتى والآخر أبدى .. بين نظامين : العالم يقابله الكنيسة .. هذان أيا كانت تحالفاتهما أو مصالحاتهما الوقتية، كانتا أساسا متعارضتين متضادتين .. كل منهما غريبة أجنبية بالنسبة للأخرى ، وصراعهما كان ينبغى أن يملأ الأعمار والأحقاب إلى أن يتم نمو القمح والدنيبة معا وينهكان بينهما الأرض التى يتصارعان على جوهرها .. ثم يجىء وقت الحصاد يوم الحساب الرهيب .. حينما يلقى الذين اعتقدوا أن مسائل الدين أوهام ، يلقون الرب قادما ينزل من خلال سحب السماء وجميع أجيال الموت قد خرجوا من قبورهم على نفخ الملائكة فى الصور ، والأحكام تصدر بلا استئناف ـ على كل آدمى لإعلام الجميع ، ثم الفرح الذى لا يوصف ، والارتباك والحيرة اللذان ليس لهما حدود ، فيدخل الذين أنعم عليهم النعيم مع الرب مولاهم ، ويساق الأشرار

إلى العـذاب الذى لا ينقطع مع الشـيطان الذى كـانوا فى خدمته ! فدراما التاريخ كانت تختتم بلوحة ثانية فيها أفواج من المطوبين (الأخيار) فى أثواب طويلة تمر فى الأعالى وسط ابتهالات متنوعة فى فضاء مضىء غير محدود ، وفى الأسفل الملعونون يصرخون ويضوون وقد تحولوا إلى أنصاف بهائم كريهة لكى تبتلعهم نيران الحريق . فالمدينتان متضادتان فى الأساس ، وإنما يتعين أن يفصلا فى الوجود فى النهاية .. تحمل كل منهما ثمراتها الطبيعية ، وتظهر كل منهما حقيقة طبيعتها .

وليـمـلأ القـارئ هذا الرسم التـخطيطى لنفسـه بآلاف التفصيلات ، وليتذكر ما لا آخر له من الأسرار وأنواع الجدل ومن الشـهـداء ومن التكريسـات التى حـملت المعنى الكلى وخلعت على جماله الحياة .. وليتريث القارئ أمام الظاهرة ، فلن يستطيع إذا أراد أن يفهم التاريخ أو العقل البشرى - لن يستطيع أن يترك الأشباح تسبح هكذا بسلام دون أن تقول سرّها .. ما الذى ستقوله فى هذا الحلْم المسيحى ؟

الميثولوجيا لغة ويجب فهمها على أنها تؤدى شيئا عن طريق الرمز

يقول سانتايانا ـ لأولئك الذين مازال يزعجهم أن كثيرين يأخذون هذا الحلم على أنه واقع ، والذين يرون أن عليهم إزاءه أن يدافعوا عن أنفسهم ، دفاعهم إزاء غلط خطير فى العلم أو فى الفلسفة ، وأنه يجب أن يسمح لهم بسوق الحجج والبراهين لتفنيده وإثبات بطلانه . يقول لهم سانتايانا ، إن هذا ليس ما أقصد إليه .. فإننا لا نسوق الحجج والبراهين ضد معجزة مولد بوذا أو قصة كرونوسى وهو يأكل أولاده ، بل نحاول تمجيد التقوى وفهم الشعر المتجسدين فى ذلك القصص . وإذا قيل إن هذا القصص لا يصدقه أحد ، أو لم يكن يصدقه أحد ـ قلت إن هذا القصص قد صدقه بلا تردد ، كما صُدّق اللاهوت المسيحى ، رجال لم يكونوا أقل عقلا

وعلما من أولئك غير الموفقين الذين فسّرو وشرحوا وبرروا عقائد آبائنا .. فلا يصح أن تكون مسائل الديانة مواضيع للجدل والاختلاف في الرأى .. فنحن لا نجادل من يحب فى ذوقه ، ولا نحكم عليه من أجل مثل هذا الهوى الإنسانى والمعرفة الإنسانية إذا كنا منصفين .. فذلك ليس دليلا على نقص العقلية فى الأمور الأخرى . ونحن حين نسلم له بخبرته ونفرح بأنه مرّ بها - لسنا فى حاجة إلى حجج وبراهين لإقناعنا بعدم المشاركة فى خبرته .. فلكل إنسان ما يحبه هو خاصة وإن اختلف فى كل حالة محبوبه . وهكذا يجب أن يكون الأمر فيما يتعلق بالديانة .

١ وقبل ظهور تلك الادعاءات اليهودية الغريبة المدلسة ، لم يثر بين الناس خلاف أو تساؤل أو جدل حول الولاء الدينى من جهة طابعه القومى أو الشخصى أو الشاعرى .. فلم يكن الإنسان عليه واجب أن يتخذ ديانة ليست ديانته كما لم يكن واجبا عليه أن يتخذ لغة أو عملة أو ملبسا خلاف ما هو جارٍ مقبول فى بلده هو .. وفكرة أن الديانة تحتوى على بيان

حَرْفى لا رمزى للحقيقة والحياة ، فكرة مستحيلة بالمرة .. ومن يفتقدها لم يصل بعد إلى منطقة التعقل النافع أو القابل للنفع فى هذا الموضوع .. فلم يتسع علمه بحيث يشمل الوجود . لم يكتشف أنه لا يمكن أن يوجد ولاء أخلاقى إلا ولاء لمثل أعلى .. فيقينه وحججه غير منتجة فى المسألة الدينية أكثر مما يلجأ إليه إن استطاع من شتائم وضربات واغتيالات .. والفلسفة يمكنها أن ترسم وتصف عدم المعقولية كما تصف العبث ، لكنها لا تستطيع أن تفندهما لمن ابتلى بهما !

التقوى
صميم الديانة ليس مسرحيا

واليهودية ـ فيما يقول سانتايانا بالفصل العاشر ـ مثل يلفت النظر لديانة تنحو إلى رفض الميثولوجيا والسحر .. كان رسولا يدعو لليهودية ذلك الذى قال إن ديانته سليمة غير ملوثة ينبغى أن تتولى أمر اليتيم والأرملة وأعمال البر الأخرى .. وبرغم أن أية ديانة كاملة لا تبقى بغير تعبير عن نظرية وطقوس ، فعلينا أن نتذكر أن للديانة جوانب أخرى أحيانا أقل ظهورا من ميثولوجيتها .. قد تكون أكثر مدعاة للاحترام إذا كانت الديانة ـ كما افترضنا ـ رمزا يصور حياة العقل ، فإنها ينبغى ألا تشتمل فقط على أفكار وطقوس ، بل أيضا على مشاعر وواجبات رمزية .. وهذا هو طراز الديانة فى كل مكان .. والتقوى والروحانية طوران من أطوار الديانة ليسا

أقل أهمية من الميثولوجيا أو من الأطياف الميتافيزيقية التى تنتهى إليها الميثولوجيا ، ولذا فقد حان الوقت لأن ننتقل من الأفكار الدينية إلى الانفعالات والمشاعر الدينية ، ومن الصور التاريخية والعلمية إلى الصور الأخلاقية .. والتقوى فى معناها الأكثر نبلاً عند الرومان يمكن أن تعنى التعلق المشبع بالتوقير لدى الإنسان لمصادر وجوده ، وتدعيم حياته ومسيرتها بهذا التعلق .. فالروح هى الفقاعة الأخيرة من عملية تخمير طويلة فى الدنيا ، وإذا أردنا أن نعيش فى رفقة مصالح دائمة لنوعنا ، ينبغى أن نقيم حياتنا على أساس واسع تاريخيا وإنسانيا .. ينبغى أن نستوعب ونترجم الماضى الذى صنفنا بحيث يمكن أن نسلم لمن بعدنا هذا الميراث أقوى وأوفر ما نستطيع ، لا مخّربا ولا مشوّها ! .. هذا الوعى بأن الروح الإنسانية مشتقة من أصل وأنها مسئولة وأن وظائفها جميعا مواريث وأوقاف . هذا الوعى يتخلله شعور بالعرفان بالجميل وبالواجب يصح أن نسميه تقوى .

الولاء لمصدر وجودنا

الأغراض الحقيقية للتقوى - فيما يقول سانتايانا - هى بطبيعة الحال تلك الأغراض التي تعتمد عليها الحياة ومصالح الحياة اعتمادا حقيقيا .. أولا الأبوان ثم الأسرة فالأجداد والوطن وأخيرا الإنسانية بعامة والكون الطبيعى كله .. وإذا نما شعور غير دينى نحو هذه القوى نتيجة معرفة واضحة بطبيعتها وعلاقتها بنا ، فإن هذا الإحساس بالواجب أو هذه العاطفة الشاملة (للكون) ستبقى عاطفة أخلاقية تاريخية خالصة .. وكما لن يقبل العلم فى النهاية أية أسطورة لا يعترف بأنها نوع من الشعر ، فهو لن يقبل أى تقوى لا يعترف بأنها عقل وواجب صريح خالص . لكن الآدمى فى ارتباكاته وحاجاته ، قد ألقى بنفسه إلى غير رجعة فى تيارات ولجج تصويرية يجب علينا أن نقتفى ونتعقب مسيره فيها .. لنرى ألا يمكن أن يصل إلى هدفه منها ، حتى من تلك الطرق الجانبية والتجوالات البعيدة الغامضة ؟!

إينياس التقى

الشىء الذى يجعل التقوى جزءاً لا يتجزأ من الديانات التقليدية ، هو أن الواقع الأخلاقى يتمثل لأذهان العامة فى رموز شعرية . فالرهبة التى تبعثها مبادئ شديدة التجريد وعواقب ونتائج شديدة البعد والعموم . هذه الرهبة مركزة حول أسماء تلك المبادئ والعواقب والنتائج .. كلنا فى صبانا قرأنا عن إينياس التقى .. ربما بشىء من السخرية .. ولعلها بدت لنا لا شىء إلا ميوعة نسائية وميل إلى إسالة المدامع مع أدنى باعث ، لكن الواقع أن تقوى إينياس كما تصورها فرجيل أو أى رومانى آخر ، لم تكن فى مشاعره بقدر ماكانت فى مهمته ورسالته .. فقد كان يحمل البلاديوم (palladi-um) إلى بلد جديد وطروادة أخرى .. وهو الذى تجب المحافظة عليه ليؤسس طروادة جديدة حتى لا يضيع إلى الأبد دم وتقاليد أجداده .. فكانت انفعالاته هى فقط التعبير الملائم

لمهمته الكهنوتية ، وذلك البطل كان صاحب فراسة وثبات فى ميدان القتال ، لكنه وقد حمل الأنشيزز (Anchises القديمة من أطلال إليوم ((Ilium، قد اضطلع برسالة مقدسة، ومن ثم فقد حقق لشخصه المسح الكهنوتى والحزن الغنائى - ولو قد انطفأت تلك الجمرات الغالية ، لما كانت نار الفستال (Vestalولما وجدت روما أصلا .. فكل ما كان فرجيل وقارئوه يوقرونه فى العالم . إن كان لديهم أى تقوى ، كان معرضا لخطر الضياع فى تلك المغامرة الأسطورية .. فلم تكن حياة إينياس الخاصة أو طعمه الخاص فى الميزان لتبرير انفعالاته .. كان إشفاقه كإشفاق فرجيل قد ارتفعا قدرا ومقاما بفضل تلك الغاية غير الشخصية المجيدة .. كانت ملحمة مصير هى التى ألهمت كلا من الشاعر والبطل .

لا بد من خلفية مثالية

وإذا حدقنا فى الأمور عن قرب ، تبينا أن الأسطورى والسحرى عنصران لازمان يخلعان هذا السمو على ذلك الفهم .. فلو لم يكن إينياس ابنا لفينوس ولم يكن لديه غريزة التنبؤ التى أوحت إليه ولم تكن جونو قد خططت لنهوض قرطاجة .. لو لم يكن ذلك ، فكيف كانت تتحقق مصائر تلك الحملة ويتحقق لها ما ترتفع به عن مستوى عملية من عمليات القرصنة اليائسة .. والمستعمرون يهاجرون فى أيامنا إلى أمريكا واستراليا وقد يحملون معهم بذورا إمبراطورية ضخمة بضخامة إمبراطورية روما ، لكنهم يمضون لا يفكرون إلا فى حياتهم الخاصة وراحتهم .. يحطمون أو يوهنون ما يربطهم بالماضى من روابط دينية ، ويضعون دون إحساس بالمسئولية - أسس مستقبل مجهول .. وإذا أراد شاعر أن يرفعهم إلى علياء مهمتهم التى يتربون منها ، تعين عليه أن يزودهم ببصيرة ثانية وبما يناسبها من اتساع فى الروح

والغاية .. لأنه يحتاج إلى شخصيات بطولية وجهاز فوق الطبيعى .

والتقى الملحمى يصنع لجنس ما يصنعه الجهاز فوق الطبيعى والشخصيات البطولية لشاعر ملحمى . التقى الملحمى يزود الجنس من خلال رموز أسطورية وسحرية بنوع من الرؤية أو التمثل لماضى هذا الجنس ومستقبله . والديانة عادة أكثر الأشياء قومية وتراثية تجسد وتمركز تراث الجنس .. أوامر الشرع .. والأعياد وأنواع الصوم .. المعابد والمقابر بؤرات عديدة لتركيز الحياة المشتركة ، ونقاط عديدة جدا لنشر العرف والعادة .. واحترام الشعب الذى يفسره عصر يحب التقدم تفسيرا صحيا ، لا يتصور بدون جزاء دينى . الشوق إلى الراحة والعاطفة عبر عن نفسه تلقائيا فى عادة تقررت ـ تحميها أساطير إلى أن أصبحت الإجازة الدورية بكل تأثيرها الإنسانى مبنية على أساس سلطان إلهى ، وصارت مراعاتها نوعا من التقوى .. فيها تحيى ذكرى الواجبات المقدسة والتقاليد المرعية لدى الجنس .

هذه الوظيفة مبررها منها فيها، لكن العامل الأسطورى ينبغى أن يشار إليه فيها، لأن المزايا المعتادة لتلك السنّة جعلتها لا تلفت الاهتمام ولا تصلح بذاتها لفرض نفسها على المشيئات والإرادات اللامعقولة . ونعود إلى مثال إينياس الذى سقناه . لو أن إينياس توقع بالتفصيل تاريخ روما جميعه . ألم يكن ذلك يحطم إيمانه برسالته الإلهية .. الواقع مهما يكن ثمينا ، لا تقدر قيمته للبشرية على الجملة . يصدم الآدمى بما يحمل من صور القسوة والعار والكوارث .. لأن الآدمى يتطلع إلى أن يجد أمة كاملة ومدينة خالدة حقا . هذا التصور فى معقولية الإرادة البشرية وأقسامها بالنسب ، حال بينها وبين تقدير وعرفان التحسينات الصغيرة والطيبات الحقيقية المحدودة ، وحمل البشر على خديعة أنفسهم بشأن ما تمنحه الحياة من مزايا وجوائز طمعا فى الحصول عليها . تلك الرسالة السماوية وتلك الأطياف العلوية وتلك الكنوز التى لا تحصى ، خدعت عقل إينياس ، فحملها خلال عواصف وأعاصير لا تقدر .. فَقَوَّته وأعانته على القيام بواجبه والذى كان واجبا حقيقيا واقعيا ، على أن خديعته كانت مجرد

خديعة فكرية.. فالمهمة التى قام بها كانت حقا تستحق أن يقوم بها . وهكذا أثمرت ثمارا إنسانية فى عصر لم يكن يُتصور فيه محبة الإنسان للإنسان . لم يكن فى إمكان الفكر الحالم أن يهتدى إلى طريقة أخرى لتبرير غريزة طيبة . ولعل الفلاسفة الذين يتمسكون بأوهام عن مركز الفكر فى الطبيعة، أن يشعروا بأن قيادة الغريزة هذه فى الحياة الأخلاقية ـ فيها نوع من المهانة ، وأن التركيز عليها فيه سخرية طويلة خالية من بريق الذكاء ، لكن قيادة الغريزة والتعبير الواعى عن الآلهة ـ ليس مجرد ضرورة فى حياة العقل ، بل إنه ضمان وصمام أمن .

التقوى تسلم بالظروف الطبيعية وبالواجبات الراهنة

والتقوى برغم ما فيها من مجازات ، فيها من الحكمة أكثر مما يمكن أن يبلغه الذهن غير الناضج المندفع ، والكائنات الطبيعية عليها واجبات طبيعية ، وقيمة الأشياء بالنسبة لها ، تتأثر بالمسافة وبالارتباطات المادية العرضية . والذهن يميل إلى قياس الأشياء بطريقة غير شخصية على أساس قيمتها الداخلية .. لأن الذهن نفسه نوع من الوظائف المجردة الكلية .. يميل إلى تجاهل الظروف المادية وإلى الأرضية اللامعقولة للفعل التى بدونها لا يكون للعقل أجهزة ولا نقاط للعمل والتطبيق .

والتقوى ـ على خلاف ذلك ـ تقدر الأشياء بعيدا عن قيمتها الذاتية أو الداخلية .. تقدر الأشياء بحسب علاقتها بشخص الآدمى الفاعل ومصيره أو حظه . ومع هذا فهذا التقدير

معقول تماما لأن التحيز فى عواطف الآدمى وولائه ، يبرره تحيز طبيعته ومحلية وضعه فى حياته .. فالتقوى اعتراف الروح بتجسدها .. ففى الحب الأبوى والبنوى ، وهو صورة أولية للتقوى ، تشكيل للإرادة والشعور لمقاومة التلقائية غير المسئولة .. إذعانا لوقائع الوجود وحاجة التوالد الحيوانى . كل مخلوق حىّ له قيمة ذاتية مثالية . فهو مركز المصالح الفعلية وأكثر من ذلك مركز المصالح الممكنة. وهذه القيمة الأخلاقية التى يعترف بها أقل الناس ملاحظة فى الأبوين والطفل ، ليست أرضية لعاطفتهم الخاصة بين بعضهم وبعض .. تلك العاطفة التى يشاركهم فى الشعور بها غيرهم من الأحياء. هذه العاطفة مؤسسة على الواقع العرضى اللامعقول .. من أن هذا قُدر له رجلٌ معين كأب ، وهذا قُدر له رجلٌ معين كابن . وبالنظر للأساس الحيوانى للحياة الآدمية، فإن هذا التعلق المبنى على هذا الظرف ، هو ضرورة وتعلق معقول .

الانقياد للغريزة أمر عادى

يورد سانتايانا أن القيد الجسدى أو المادى ينبغى أن لا يتعرض للذهن فى قيامه بوظيفته الخاصة أو يفسد قراراته . فتحت ستار رقة الشعور ، لا يحل لأحد أن يصبح أحمق إلى حد أن يعزو إلى أبيه أو إلى ابنه من طول القامة أو من الذكاء أو الصلاح ـ أكثر مما عنده فى الواقع . فهذا وإن كان ضعفا طبيعيا ، ليس من التقوى أو من الولاء الصادق .. ففقدان القلب المحب شىء ووجود اليقين والتصور السليم شىء آخر . والتقوى لا تكون قط بهذه الدرجة من الجمال والتأثير ، ولا تكون قاهرة بالغة الإنسانية مثلما تجمع وتصحب فكرا منصفا غير متحيز ، مدركا للنسبة التى تمتزج بالوجود ، قادرا على أن يفلت من طريق العطف والمخيلة معا ـ من الحدود التى تفرضها على الحياة الشخصية الظروف والواجبات الشخصية .

وكما يموت الآدمى ميتة نبيلة وهو يرقب انطفاء ذاته .. حين يظل إلى آخر لحظة مهتماً بما ستكون عليه مصالح ومسرات الآخرين ، وأنه لتقى تقوى عميقة أشد العمق ، ذلك الذى يحب بلا حدود وطنا وأصدقاء وشركاء وهو يعلم جيداً جداً ، أن أولئك ليسوا أجمل ما على وجه الأرض ، وذلك الذى رضى تمام الرضا بكفاية الشخصية مع ظروفه الطبيعية دون أن يحمل حقداً .. لأن أشياء أخرى فاتته مهما كانت تستحق الإعجاب ، فالمثل الأعلى فى هذا العالم الكثير اللغات ، حيث نصيب العقل من التعبير دائما نصيب محدود بزمان معين ومكان معين .. المثل الأعلى فى هذا العالم هو أن تفهم جميع اللغات ، وتتكلم لغة واحدة فقط ، فتجمع برجولة مع بقية الإدراك مطابقة مقتضى الحال .. والتقوى - على نحو ما - حزينة تستحق الرثاء ، لأنها تنطوى على خضوع لصدف الأحداث المادية وقبول للمحدودية والتناهى ، لكنها فيها جانب نبيل جداً ومثمر جداً .. لأنها مع انخفاض الحياة فى ظل القوانين العامة للنسبية ، تقابل العذر والصبر ببساطة

الإخلاص ، وتجاهد بقدر ما تقتضيه الظروف المفروضة .. ولما كان الآدمى يزعم قدرته على التجريد والحيدة مغروساً كالنبات فى نقطة من نقط المكان والزمان ، ويعيش بفضل الحدود المفروضة عليه ، فإن التقوى جزء من توازن وجوده ، تتمركز على نحو ما فى مركز ثقله فى القلب وبؤرته فى البؤرة المغناطيسية ، مما أعطى وأنعم عليه به ، تباشر الوظيفة البالغة الأهمية والحكمة .. وظيفة ترد الفكر إلى صوابه وإعادته لرشده ، فهى تحفظ الحياة الفكرية والعاطفية من العربدة الخطرة .. تحفظهما فى التقاليد والمجتمع .. وفى المجالات المصطلح عليها لها مزية أنها يمكن أن تفهم ، كمجرد اصطلاح ، وتستعمل كمجرد رموز لتباشر إقناعاً لا معقولا وتخدم عن طريق العدوى الدافع الأخلاقى وتحمل نوعاً من السكينة العاطفية .

لزوم التجسد للروح*

والوطنية (patriotism) شكل آخر من أشكال التقوى - يرى فيه بوضوح - أساسه الطبيعي ووظيفته العقلية وفقا للعقل ، إذا فضلنا بلدنا على بلد آخر ، فلأننا أولاده ومواطنوه قبل أن نكون فلاسفة أو سائحين ، والطابع المميز النوعي أمر لازم كنقطة تحديد مصدر ضرورية للعلاقات والصلات في الدنيا ، فالصغر لا يمكن أن يكون نقطة مصدر إشعاع أو مجالاً ، فالروح لم تتجسد في جسم بمحض الصدفة ، وجوهرها الأول أن تعبر وتحقق وظائف البدن وموارده .. غرائز تصنع مثلها العليا وصلاتها بصنع عالمها ، والوطن نوع من البدن ، بدن ثانٍ .. جهاز مغلف ، يعطى

* لا يقصد المؤلف المفهوم الديني للروح وإنما يقصد المعنى الدائم الخير الذي وراء الأحداث والأشياء المختلفة والذي يعطي للحياة قيمتها والذي يحجبه عن العيون ظاهر الصراع والعشوائية في الحياة.

لإرادته معالمها التى تعرفها ، يقوى الروح أن يكون لها تراث معين خاص .. وللعالمية مكانها - بلا شك - لأن الإنسان قد ينمى فى شخصه ، ويمثل فى أمته ، قرابات ووشائج مع الشعوب الأخرى بقدر ما يتفق مع ما لديه من نزاهة القصد ، ووضوح الغايات والأهداف .. فلا تعارض بين قابليته للتأثر بالأشياء الأجنبية ، وبين سعادته ومنافعه فى وطنه ، ولكن لا سعادة ولا منافع لإنسان لا يمثل شيئا يطل على الدنيا ، وليس له فيها بقعة تخصه يقف عليها ، لا فى الأرض ولا فى السماء ، هائم على وجهه من مكان لمكان ، حكم على نفسه بالاغتراب والنفى ، دائما ساخط قلق وحيد لا تحمل انتقاداته صورة مثلٍ أعلى ، ولا تحمل خبرته حلاوة أو تَجْمع ثمرات أولاده - إن كان له أولاد - بلا أخلاق ، لأن العقل والسعادة شأنهما شأن غيرهما من الأزهار ، يذبلان حينما يُقطفان !

تقوى الآلهة تأخذ صورتها من المثل العليا السائدة

أكثر الأغراض اتصالاً بالتقوى الآلهة .. والفلسفة الشعبية تقلب الوضع الطبيعى ، وتظن أن الآلهة هى مصدر الأخلاقية والأخلاق ، على حين أن التقوى متى كانت صادقة تكون نتيجة للأخلاقية وتعبيراً عن الأخلاقية ، فأى حياة ذات إرادة متى بلغت مستوى التأمل ، تكون أخلاقية بالضرورة ، بقدر ما فى غرائزها من اليقين والتوافق ، وثمار تلك الغرائز المتوافقة حين يدركها الوعى ، قد تحمل ثماراً بدورها تكون غرضا للتصور وغاية لفضيلة ، وليست قابلة بسهولة ـ للتصور ، ولذا يترك من قديم وصفها وبيانها للشعراء واللاهوتيين .. فمثلا يقال إن الحب ـ هو جذر الإحسان المسيحى ، بينما هو فى الواقع رمز فقط ، لأن الآدمى الذى ليس لديه فائض من الاحتياج والميل إلى حب الأشياء الحقيقية ، لا يمكنه أن

يفهم عبارة " حب الله " ، ولا يمكن أن يتأثر فى سلوكه وعمله بهذه العبارة .. ومن التاريخ يبين بلا غموض أن الأب المحبوب يغير طابعه مع تغير عواطف الآدميين الحقيقية ، فما كان يحبه واضع المزامير كان جمال بيت الرب ، والمكان الذى يسكن فيه مجده ، هدوء كاهن وسكينته ، واعتزاز وفسحة مليئة بالشكر والتأمل بعد عواصف الفتنة والحرب .. وحدة العقل فى اعتزال وراحة من تناقضات الدنيا ، هذا ما كانت تعنيه ـ فيما يبدو ـ عبارة " حب الرب " عند اللاّويين .. يقول القديس يوحنا : " إن من يدعى أنه يحب الرب دون أن يحب جاره كاذب " ، فهنا حب الرب .. تقدير لا دنيوى للأشياء والأشخاص من قلب عينه على مملكة السماء ، حيث يمجد المتواضع والمسالم ، بينما نفس العبارة ـ قد غيرت معناها فى الكاثوليكية الحديثة ، تغييراً ملحوظاً ، وأصبحت تعنى فى الواقع حب شخص المسيح ، ذلك لأن التقوى قد اتخذت اتجاها عاطفيا ، وتركزت على المحافظة على علاقات شخصية مع المخلص يتصورها المؤمن ، كيف إذن يتصور أن تأثيراً

سماوياً وحيداً يسأل عن نتائج أخلاقية على هذا القدر من الاختلاف ، والتقارير فيما بينها قد أنتجت رغم اطراد تقاليدها أفكاراً مختلفة حول مصدرها المفترض وغايتها ؟!

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

ديانة الإنسانية

النوع الإنسانى كله بالنسبة لبعض العقول - موضوع تقوى .. هذه الديانة أمنية أكثر منها واقعا ، فالإنسانية لا تبدو لأحد - فى الواقع - فى هالة دينية .. إن التأثير المشترك للبشر بعضهم على بعض ، والطبيعة المشتركة بينهم ، فى حالة اختلاط وغموض إلى درجة بعيدة لا يمكن أن تملأ روح الآدمى بالتوقير والهيبة . وثلاثة أرباع تقوى الآدمى إشفاق ورثاء ، وهناك بلا شك فضائل بشرية متميزة ضرورية لوجود النوع ، مثل الصبر والشجاعة ، واعتماداً على العادات التى ليس عنها غنى ، يحمل البشر أثقالا لا حد لها من الشقاء والرذيلة !

فالحياة تنتشر بغزارة فى اتجاه الخطأ والعبث ، وفى طرق الفائدة والنفع ، وكفاحها العشوائى ضد جهلها وقعودها وحمقها يتركها فى كل عصر من تاريخها ملوثة

بالقذارة مضرجة بالدماء .. فلا يمكن أن نبالغ فى شقاء الآدمى ، إلا إذا بالغنا فى تقدير حساسيته للشقاء ، ففى كل صدر شغف بالشقاء وميل إليه لم تُسبر أغواره ، ثم ولا شك أن التفاهة أحيانا ، والعادة القوية أحيانا ، تحول الانتباه إلى السطح فتغطى الخواء الداخلى ، ولذا يقول بعض المشتغلين بالأخلاق دون أن يقصدوا إلى السخرية .. إن العلاج الأكيد للشقاء هو العمل ، والعمل الذى يصفونه أكثر صلاحية لإسكات الألم منه لإزالة سببه ، لأنه يشغل الملكات دون أن يجعل الحياة معقولة .. فقبل أن يبعث النوع الإنسانى على الرضا المعتدل . ولا نقول يبعث على عبادته ، يجب أولا إصلاح كيانه كله وتنظيم توالده وتوضيح مفاهيمه وجعل عواطفه متساوية متوازنة أكثر رقة ورقيا .

إن عبادة النوع الإنسانى كما هى عليه الآن ، معناها حرمانه من الشىء الوحيد الذى يجعله قريبا من الإلهى .. وهو التطلع إلى مثل أعلى .. من أجل هذا التطلع يعيش التراب الآدمى .. تبدو الجريمة والشقوة سوداء مظلمة إزاء

السعادة المرجوة المتخيلة يكسوها التطلع إلى الخير وتوقعه .. ضياء الآدمى ليس موضوعا للعبادة .. إنه عابد يَعبُد .. والموضوع الذى يعبده قد يكتشف فى داخله مستمدا من روحه منتزعا منها .. وبهذا المعنى تكون ديانة الإنسانية هى وحدها الديانة ، وجميع ما عداها شرارات وخلاصات منها .. فالمثل الأعلى فى داخلنا يعير الأرباب ألوهيتها ، فلا يوجد لأى قوة مادية أو نفسية أى نفوذ أخلاقى بأى قدر ، وليس لها أى مكان فى الديانة على الإطلاق .. اللهم إلا إذا أيدت وقادت المثل الأعلى القومى إلى أرواح المؤمنين .. وبدون قيام المجتمع الأخلاقى بين المؤمنين وبين الرب ، تكون الديانة وثنية صرفا .. بل حتى الوثنية تكون مستحيلة .. حتى يُظَن أن القوة الغاشمة يمكن تحويلها فى الصلاة إلى تأثير نافع أو ضار بمسعى إنسانى !!

التقوى العالمية

ثم هنا تقوى فلسفية موضوعها العالم أو الكون .. وهذا الشعور يشترك بين الرواقيين القدماء منهم والمحدثين .. ولدى الرواقيين قدر واضح في اعتماد الآدمى على الطبيعة أو العالم الطبيعى ، واعتماد جوانب كثيرة فى عقله عليه .. وهذا التبرير للتقوى العالمية يزيده غموضا ـ لا تأييدا ـ الالتجاء إلى المجازات والعموميات المبهمة .. هذا الالتجاء الذى يغلو فيه عادة هؤلاء الفلاسفة فى محاولاتهم المحافظة على التبتل الدينى المعتاد .. لأنهم كلما حاولوا تشخيص العالم لإعطائه صفة الرب ، كلما أحالوه إلى شيطان .. فالعالم بقدر ما نستطيع أن نعرف من مراقبتنا له آلة عجيبة هائلة .. فامتداده وسنته ونظامه وجماله وقسوته كل منها يجعله ذا تأثير مذهل .. ولو صورنا حياته تصويرا دراميا وتصورنا روحه ، لامتلأنا عجبا ورُعبا وتسلية ، ولبدت الروح بالغة المجد بالغة الوفرة

فى الإنتاج ، بالغة اللدد ، بالغة الحرفية ، بالغة البناء وقلة الحساسية .. فالعالم شأنه شأن جميع النباتات له طريقته الخاصة فى صنع الأشياء ، ليست معقولة تماما ، ولا هى أفضل الطرق نظريا ، لكنها صابرة محتومة ومثمرة . عظيم ذلك الجهاز بطينه وناره .. رهيبة مروعة تلك التجربة الواسعة المؤلمة المجيدة . لماذا لا ينبغى أن ننظر إلى هذا العالم برثاء وإشفاق ؟ أليس هو مادتنا وجوهرنا ؟ هل نحن من طينة أخرى ؟ كل إمكاناتنا منذ الأزل مخبأة فى صدره . وهو الذى يقدم لنا كل سرور ومتعة . نستطيع أن نخاطبه بغير رعب خرافى .. فهو ليس شريرا .. إنه يسير وفق عاداته .. لا يلتفت لأحد يمكن أن نثق فى أنه سيكون عند كلمته وليست الشركة بيننا وبينه مستحيلة .. وإذا كان هو مصدر كل طاقاتنا ومقر كل سعادتنا ، أفلا نلتصق به ونمجده ؟ ونحن نرى أنه يعيش عيشة النبات - على هذا القدر من العظمة والحزن .. ولسنا نحن مسئولين عنده عن ذلك .. ذلك الذى لم يعرفه هو قط ؟ حيث يوجد مثل هذا القدر الذى لا حد له من

الإمكان والقوة ، يوجد مكان وفرصة لكل أمل .. وإذا كان لا ينبغى أن نتتبع أخطاء الأب أو عيوب الأم ، فلماذا ينبغى أن ندين العالم عن جرائم يجهلها ؟ هذا العالم الذى اختلط بدمنا؟ .. العالم هو آدم الحقيقى ، والخلق هو السقوط الحقيقى .. ونحن لم نلم قط أبانا الأول الأسطورى كثيرا جدا، برغم عدم تناسب النتائج التى ترتبت على خطيئته .. لأننا أحسسنا أنه ليس إلا بشرا ، وأننا فى موضعه كنا نخطىء أيضا .. ولذا يسهل علينا أن نغفر لجدنا الحقيقى خطيئته الطبيعية التى نرتكبها نحن من لحظة لأخرى .. حيث إنها هى الحماقة الضرورية لمجازفتنا بالوجود ، دون أن نعرف مقدما ثمن ونتائج هذا الوجود !

الروحانية وما يغشاها روحانى
من يعيش لمثل أعلى ومن أجله

يورد سانتايانا فى الفصل الحادى عشر ، أن التقوى تنظر إلى الماضى حين تكرم مصدر الحياة .. تجمع الطعوم الأخلاقية وتقويها بالغذاء الطبيعى والتاريخى ، ولكن لابد من أصل للهضم والتشكيل لتمثيل الغذاء ، لنبدأ توجيه مثل أعلى يُفْرض على هذه القوى التى جمعت .. فالديانة لها جانب ثان أسمى ينظر إلى الغاية التى نتحرك نحوها كما تنظر التقوى إلى ظروف النمو والمصدر الذى منه يستمد الطاقات .. هذا الجانب المتطلع فى الديانة يُسَمّى روحانية إذا أمكن .. فالروحانية أكثر نبلا من التقوى .. لأن ما يحقق وجودنا ويجعل له قيمة هو فقط ما يجعل لمصدر وجودنا قيمة ، فليس أدنى ولا أوغل فى الآداب المجردة من القيمة - من مادة وأصل كل شىء .. فلا قيمة لنعمة الوجود ما لم يكن الوجود

خيرا .. يشفع له على الأقل سعادة ممكنة .. والآدمى يكون روحانيا حينما يعيش فى حضور مثل أعلى ، وإذا أكل أو شرب فعل ذلك من أجل خير نهائى حقيقى .. وهو روحانى حين يواجه هدفه صراحة على هذا النحو بحيث يصبح كيانه المادى كله مركبةً شفافة تنقله وأداةً لا تعوق التفاته .. تسمح أن تستعملها روحه بكامل الحرية بغير سرف .. لا حاجة لأن يوصف هذا المثل الأعلى وصفا فخماً أو وصفا صوفيا لأن الحياة البسيطة هى نفسها مكافأة نفسها ، وتحقق باستمرار الوظيفة الخاصة بها .. وقد يقوم الروحانى بعمليات فكرية متعثرة ، ويشرف بنجاح على أعمال ومسائل وأمور شديدة التركيب ، وعينه التى لا تفارق هدفا معقولاً تبسط بين يديه أخلاقيا ـ الفوضى المادية التى ينظر فيها ويظل محتفظا بحريته .. هذه السيطرة الروحانية بطبيعة الحال ليست اعتسافاً ولا وضعاً للأشياء ـ قسراً ـ فى تركيب فلسفى .. فإن مثل هذا التركيب حتى لو كان قابلا فى ذاته للنظر ، يترك الآلة المنطقية المتصورة بلا مثالية وينقصها الاستجابة لمصالح واقعية .. إن الروحانية غاية داخلية وثبات فى العاطفة

يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع فى عالم ينثر عليه شيئا من سكينته هو وسلامه هو .. يسلك طريقه فى المحيط ومعالمه لا يغريه شىء أن يشرد .. يستطيع فى كل وقت أن يحيى كل شىء .. لا يعنيه كما كان القديس فرنسيس يحيى الشمس والقمر ، بأدب وبقدر من التجرد .

الروحانية أمر طبيعى

يطيب للروحانى أن يقول ، انظر إلى زنابق الحقل ، لأن سر الروحانية له ذات البساطة التى فى صناعة زنابق الحقل، مع إضافة أن الروحانية قد وفقت إلى الوعى والإدراك بدون إرباك الغريزة .. هذا التوفيق وهو نادر جدا فى حياة الآدمى وقد يبدو من الغرائب والنقائض ـ هو كل ما حققته الروحانية . وكان ينبغى أن تكون الروحانية أمراً مسلّماً به ، لأن الوجود الواعى المدرك له قيمة ذاتية . ولا يوجد أى سبب ذاتى يدعوه إلى خنق تلك القيمة فى أطماع خارجية وأمور تستعبده وتسترقه . لكن الروحانية مع كونها طبيعية وواضحة كزنابق الحقل وجمالها .. عرضة للغش والإفساد .. لا أدرى أى جحفل من جحافل الجراثيم قد اجتاح الأساس الطبيعى للروح منذ البداية ، والتهم نسيجها فأخفى التكلف والأحلام المزعجة ـ أخفيا صفاءها كليةً .. ومع ذلك فالروحانية أو العيش فى المثل الأعلى ، ينبغى النظر إليه على أنه الطابع

الأساسى الأصيل للحياة كلها ، وأن الانحراف عنه مرض وبداية تحلل .. يحتاجان إلى تفسير ويستثيران الاستغراب . ينبغى أن يكون الروحانى مستقرا تماما وفى مكانه الطبيعى فى عالم خُلق كى يُنتفع به .. فوقه السماء قد نشرت كأنها خيمة تؤويه ، وما تحت فلك القمر ـ أثاث لراحته إذا أراد .. وهو لا يستطيع بطبيعة الحال أن يزيل الجبال ، لكنه لا يريد ذلك ولا يرغب فيه . فقد وصل إلى أن للجبال وظيفة ، واتخذ منها أداة كما يتخذ المصور قماشه وفرشاته .. يراقب جمال الجبال ومعادنها ومراعيها ومناعتها فى وجه الأعداء .. يراقب ذلك ويحتفل به فيما يتوجه به إليها .. والروحانى ، لا يخجل من أن يكون مسكينا ، لكنه يعرف تماما ما الذى يستطيع المال أن يفعله وما لا يستطيع ، وعدم تعلقه بالأمور الدنيوية هو معرفة صحيحة بالدنيا .. ليس حملقة مدهوش أو معرفة مستعجل مشغول ، بل فهما هادئا مترديا ، ووزناً لا يكون إلا عن معاملة وموافقة ، وفى مقدوره دائما أن ينحّى المعاملة والموافقة جانبا .

إمكان أن يكون الوعى البدائى روحانيا

لو كان جوهر الحياة روحانيا ، لما كانت النماذج الأولى للحياة مناقضة لهذا الفَرْض ، ولكن نظرة الآدمى للوعى البدائى مغرضة تعتمد كثيرا على قياسات جزئية .. فنحن نتصور حياة الحيوان الطبيعية ، تصورا إجماليا .. فيجب أن نعتبر المشاعر الوقتية المصاحبة لهذا التصور ، معبرة تعبيرا قاصرا جدا عن سعة تلك الحياة وظروفها ، وهذه المشاعر لاتحتوى على نظرة شاملة لحظوظ الحيوان مع شدة قصر الحياة بالنسبة لكثير من أجناسه وأنواعه .. ولذا تخفق هذه المشاعر فى إدراك فكرتنا عن حياة بشرية روحانية تتمثل كل المحيط والمصالح التى يعيش فيها الآدمى أو يتصل بها .. ولكن لا يترتب على ذلك تصور أن مشاعر الحيوان بطبيعتها ليست روحانية ، وليست فى إطارها الضيق المتاح لها مشاعر مثالية تماما .. فإن أكثر عواطف الآدمى مثالية - هى عاطفة الحب .. وهو أكثرها استبداداً وحيوانيةً وأقصرها عمرا . ولو

أمكن أن نرجع إلى نظرة بريئة مستغرقة إلى مشاعرنا القديمة السابقة ، لوجدنا أن كلا منها كان عالما روحانيا صغيرا كعالم دانتى .. فيه جحيمه ونعيمه ومطهره . تلك الخبرات المقطوعة عن جميع منافذ الرؤية وعن التعاطف مع ما هو بعيد عنها ، تحمل دائرة مغلقة من المصالح ولمحة طائرة من الأبدية . وهكذا يعيش الرضيع على الأعراف السرية للحياة دون حاجة إلى أن يستعير سحب المجد من مكان آخر ، ويكرر على مستوى مصغّر النظرة الطوبرية من حيث إنه يؤدى على نحو كامل الوظيفة الوحيدة المطلوبة كما يعيها بلا زيادة أو نقص ، ويحسها إحساسها المثالى .. فالمص وإغماض العين وفتحها عمليتان سخيفتان ، لكنهما قد تجلبان هزة ورضا من حيث المثالية ليسا أقل من خفقات القبر .. وليس يعيب الوعى ذا الأساس المادى الضيق والظروف البسيطة نسبيا - أن يكون مجاله ضيقا وقيمته التمثيلية منخفضة !

ماذا يعترض طريق الروح؟

عدو روح الآدمى ليس البساطة ، وإنما التكلف والتعقيد .. ومع تكاثر غرائزه ، صارت مختلطة مرتبكة ، ومع ازدياد دوامها ازدادت ضعفاً وتعرضاً للتوقف والإعادة والانحراف .. فكأن الطبيعة ألفت بالشكل البدائى إلى مرجعها مرة أخرى، لتصيّره مادة ثانية قبل أن تصبه فى قالب معقول (عقلانى) .. والطواعية التى اكتسبتها الغريزة فى ضعفها عند المخلوق الجديد ـ هذه الطواعية باتت هى فرصة العقل ، لكن قبل أن يتمكن التوافق الأعم من أن يسود ـ غلبت الفوضى على العقل . فكل نازعة تنزع تترك همستها وتخفى رأسها فى البلبلة ، على حين يصدر قانون جائر مدعٍ فى غيبتها دون رأيها .. والأنشطة الثانوية التى كان يجب أن تلزم ثانويتها تستقر وتعيش كأنشطة غير ثانوية .. ونحن نطلب الوسائل بإصرار كما لو كانت غايات ، والغايات على

أنها قوى يُتوقع أن تسعف أنشطة ليس لها مبرر ، فجاز أن يحل ادعاء العلم محل الحكمة ، ويحل الطغيان محل الحكم ، والخرافة محل الأخلاق ، والتفاصح محل الفن !

هذا التكلف المعقد جعل تتبع سير العقل مشكلة محيرة طويلة .. فالانضباطات الناقصة فى العقول وفى الدولة تتمثل للوعى فيما يسمى بالأهواء والانحيازات والدوافع والعداوات .. أصحاب هذه الغليانات لا يفهمون إطلاقا أسبابها أو نتائجها أو صلاتها ، وكل منها ينفض فى الهواء ويطير فى اتجاه شىء يفضله تفضيلا مؤقتا إلى أن ينقضى لا يدرى لماذا ، أو إلى أن يصادف قوة مضادة تكتسحه .. فتلك العناصر الحيوية الأولية فى عزلتها النسبية لدى الحيوانات ، والتى قد تنتج صور دراما صغيرة لكل دراما منها غرضها الواضح ، وما حققته وما انتهت إليه من نهاية تجتمع وتختلط فى إرادة الآدمى البربرية ، ولتصبح حشداً جامحا صاخبا معربدا . لأنها متصلة بعضها ببعض بما يكفى للضغط والتوتر ، وليست محبوكة الصلة بما يكفى لإيجاد التوافق والتناغم .. فالوحدة التى مبناها الشعور بالذات ـ لا تسفر

ابتداء إلا عن تشتت .. وأول ما لاح فجر فكرة الخلود للعقل - لاح عند اكتشافه لفكرة الموت ، فبدت هذه المثالية شيئا خارقا إلهيا يكاد أن يكون مستحيلا .. ووجد الآدمى نفسه فى تلك اليقظة فى حيرة جعلته يظن أن الفوضى هى أصل العالم .. على حين أن النظام وحده هو الذي يمكن أن يلد عالما ويسترعي إحساسا . إذ الفوضي شيء ثانوى ينتج عن تنازع وتصارع التنظيمات حين تتداخل وتتصادم بعضها فى بعض .. والفوضي خليط مثلها مثل الضوضاء المعهودة تحدث من تراكب الاهتزازات بلا نظام ، رغم أن لكل منها إيقاعه فى حد ذاته .. والمشكلة هى مشكلة ترتيب هذه الأصوات معا فى أنغام موسيقية متسقة متآلفة .. ومادام هذا النشاز الشامل مستمرا ، ستبقى حياة الإنسان متشنجة ومتخاذلة لا تستطيع أن تجد مثلا أعلى ، ولا الوصول إلى تصور شامل للطبيعة .. فإن الأفكار الواضحة والمقاصد الناجحة لا تظهر للعقول إلا إذا سكنت النوازع والإدراكات الحمقاء واستحالت إلى غريزة مدربة واستجابة مضطردة مستمرة واستعداد لائق لمواجهة العالم . عندئذ تبدأ حياة العقل تقدمها ومعها جميع الفنون .

إن القوى الفعالة فى هذه الدراما هى أولا النوازع والوظائف الأولى الممثلة فى القيم الأولية ، وثانيا تلك الشبكة الرقيقة من الإشارات والاستجابات التى بها تصبح تلك الوظائف جهازا يمثله التفكير العقلانى وجميع التصورات العقلية الثانوية ، وثالثا التوازن والقوة الكلية لذلك الجهاز الجديد حين يعمل متمثلا ذلك فى المثل الأعلى .. عندئذ نجد الروحانية التى ربما تكون فى القيم الأولية حسّية عاطفية قبل أن تتدخل العملية العقلية .. نجدها أى الروحانية - لا ترضى إلاّ أن تعيش فى النشاط النهائى الذى أدواته تلك العمليات العقلية .

الدنيوية أحد أعداء الروح

العقول الدنيوية مليئة بالأخلاقية الاصطلاحية ، رغم أنها تحتضن رذيلة أو رذيلتين فى السر لتسكين الطبيعة العنيدة ، فضلا عن أنها فى كل شىء معقولة إلاّ فى الأصول الأولى . وطالب اللذات ضعيف أحمق فى نظرها ، وهو منبوذ قبيح السيرة .. أما الروحانى فهو - فى نظرها - مخلوق حالم لا خير فيه ، غير جدير بالالتفات للحضارة إذا أريد لها أن تعمل بطريقة جدية برموز للمعلوم وغير المعلوم من المقادير فى النهاية .. تنتهى إلى قيم متعينة محددة حتى لا يعرف الأجير أو العميل أو الوسيط الدنيوى إلا فى الطيبات المصطلح على أنها طيبات . تلك العقول ضاعت فى الأدائيات .. فهى نفسها ليست إلا أدوات فى حياة العقل والثروة لمركز الشهرة والنجاح الظاهرى اللافت للأنظار .. هذا هو معيار السعادة عندها .. وفضائلها المختارة هى الاجتهاد والفطنة والتعامل المادى السليم والتقوى المعروفة المعتادة ، وغير ذلك مما له منفعة معترف بها .

اللذة .. ما لها وما عليها !

هذه العقول أو الأنواق العامة - على حق فى نعيها على اللذة وعلى الأحلام .. فالعيش الحسّى (ولا أقصد عيشها الداعر فقط ، بل أيضا خفقات المتشاعر بغير فن ، وشطح المتصوف بغير انضباط) .. هذا العيش الحسّى ليس تافها وسخيفا وسطحيا فحسب ، بل هو أيضا خطر على الشرف وعلى السعادة الصادقة .. فحين تظل الحياة ضائعة فى الحس أو تتوجه بكليتها له - تضمر إنسانية الآدمى ذاتها ، وقد تفسد إنسانية الآدمى وتضطرب .. وهذا كثير الحدوث حينما يترك الآدمى روحه للنزعات والأهواء تتلاعب بها منساقا وراء عدم إيمانه بالعقل ووراء المجاراة والمسايرة لدنياه ! .. على أن روح الشهوانى فيها بئر حكمة بالقياس إلى التركيب الفعلى للدنيوى وفصاحته الفارغة .. فالشهوانى

يعيش مستوى حيوانياً طبيعيا من مستويات الحياة ، ويحصل منه على نوع من الخير .. فمساعيه حرة ومعينة - وإن تكن مؤقتة - تعود عليه برضا أو صدق .. فهو أقرب إلى البدائية منه إلى الفساد .. وحتى فى فساده - يجد شيئا يبرر وجوده الساخط .. إنه يجمع لذات حيثما سار ، وفيها كما قلنا قد يصادف من العمق والمثالية ما تتنفسه الطبيعة فى كل مشاهدها .. لذلك فخبرته مهما تكن خاسرة - خليقة بالاهتمام .. فيها شىء بشرى مأسوى .. وأيسر لك أن تجعل الشهوانى قديسا ، من أن تجعل قديسا من المغرورين المتفيقهين . وإذا كان الشهوانى

تلاحقه آلام لا يتوقعها ويتصدع وينهار ويتخلى عنه كل شىء ويكون مصيره إلى الهلاك الكلى كالحيوان ، فإن الدنيوى لا يفضله ولا يمتاز عليه كثيرا فى هذه الأمور والسفسطات التى يجمعها ويكدسها .. فهى قد تبقى بعده فارغة عقيمة كما كانت ، على حين أن حياته القصيرة تكون قد استنفدت فى العبودية ، وعقله يكون قد تقلص فى اللغو

والمطامع الحمقاء ! طالب اللذات يشبه بعض الكائنات التى تهيم على وجهها ترعى الأشواك وتعيش على الصُدف ، بينما الدنيوى كدواب الحمل ، تارة يلاقى الهوان ويحمّلُ ما لا يطيق ، وتارة يسمّن فى مربطه ويعلوه سَرْجُ غالٍ نفيس .. حالهما كحال الحمار وحال البغل فى حكاية أيسوب المشهورة .

الحاصل النهائى لحكمة الدنيوى

ثم إن كان طالب اللذة أحيانا شاعرا ، وكان الدنيوى غالبا رجلا شريفا ، فهما جميعا غير معقولين .. غير معقولين كلية إلى حد مثير للرفض لدى التأمل والنظر فى حياتهما . فى تعميد الروح لحياة العقل ، ينبغى أن يكون النذر الأول -

" رفض كل صور الأبهة والغرور الموجودة فى هذه الدنيا الشريرة " .. لأن الشخص الذى ليس عنده معنى لهذه العبارة، هو شخص ليس لأى شىء عنده أى معنى .. شخص لم يتصور خيراً أسمى ، وليس فى أفقه غاية نهائية .. شخص لم يحدث قط أن سأل نفسه من أجل ماذا يعيش ؟!

والدنيوى مع كل فخامة جِدّه - هو شخص تافه أساسا ، وهو بكل حكمته وما يردده من رطانة - فارغ أصلا، ويساير الديانة دون أن يفكر يوما فى معنى الديانة .. لأنه ليس أهلا بأى درجة لأن يسأل عن معناها ، وهو يحكم على الفن حكم الببغاوات .. لم يتوقف لحظة قط ليستعيد فى

خاطره صورة .. ويغط فى شأن الخدمة وشأن الواجب ، دون أى اعتراف بمطالب طبيعية لأحد أو بأى مستوى للتحسين .. حياته الأخلاقية سلسلة طويلة من الإحالات بلا عائد يجعلها مفهومة المعنى يتخللها حذف واسع .. ترك للعرف مهمة ملء الفجوة أو الفجوات فيها ، وهو ينكر قيم الحواس لأنها تغرى بالهرب من الأنشطة الميكانيكية المفروضة ، أما قيم العقل فهو بالضرورة يتجاهلها .. لأنها أبعد من دائرة مرماه ورؤيته .. يتمسك بالمأثورات المصطلح عليها والمعايير الكمية المادية .. فإنتاجه بقدر ما يتعلق بنفسه ـ نفاية أساسا ونشاطه أساسا إرهاق ، وإن استمتع كما يستمتع الشهوانى بالعملية ـ وعبّر عن ذلك فى حياته ، فإنه يكون قد حقق لنفسه بعض النفع الذى يعطى لحياته شيئا من الروح والصحة .. وهذا النوع من النفع لا تعتد به ولا تنظر إليه الحكم الدنيوية ، لأنها جميعا ذات نبرة قاطعة صارمة .. والأعمال التجارية

وأى صناعة معتادة ، قد تشكل لدى الآدمى جهازا وظيفته الطبيعية مقصورة على هذه العملية أو تلك .. وعندئذ يكون نشاطه الأكثر تجريدا منحصراً فى مثل جمع الأرقام وقراءة

الإعـلانـات ، ويصـبـح ذلك هو الوظيـفـة الخـاصـة لروح ذلك الآدمى الملائمـة لعـقله .. وهكذا يخـتـبئ بورجنديون تحت الأرض ، ويعيش مدّعو العلم فوقها فى سعادة (إشارة إلى أسطورة سجفريد وكريميلد) .. ولا يعوز أعمدة المجتمع من الدنيويين ـ الشواهد لتأييد فلسفتهم .. فالفلكيون يؤكدون أنه سيـأتى الوقت الذى تنطفئ فيـه الحيـاة على هـذا الكوكـب المنهك ، وتنتهى جميع لذات الحواس والخيال ، لأنها هى التى يتـضـح ويثبت بطلانها ، على حين أن كتل المادة التى حَوّلها الدنيويون بـآلاتهم ونقلوها من مكان إلى مكان ، ستبقى قائمة تشـهـد عليـهم .. ولعلهم يعلمـون ذلك ، ولعل علمـهم يرضى كـبـريـاءهـم ، وحين لا يبـقى شـىء له قـيـمـة فى نظر الروح ، ستلقى الأرض بفضل الدنيويين ـ ظلا يختلف اختلافاً ضئيلاً عن أخاديد القمر وحفره !

طريقان مزعومان للهرب من التفاهة والخواء والغرور

لا توجد لحظة أكثر حرجاً فى حياة فرد أو أمة ، من لحظة الشعور بصدمة الضمير والاقتناع بالتفاهة والخواء والغرور . فالفشل والإنهاك واختلاط وتضارب الأغراض والأهداف وكل ما يسوق إلى النفور والاشمئزاز - يواجه الآدمى حتما بالاختيار الصعب الخطير بين أمور كلها مر .. هل تفاهة الحياة وبطلانها عارض أو أصل فيها ؟! أعلينا أن نبحث عن مطمع جديد خال من أوهام النوازع الطبيعية ، أم علينا أن نتخلى عن الإرادة والمشيئة كلية ونسلم أو نستسلم لعدم المبالاة إطلاقا بالفروق ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نجد نمطين دينيين لا دنيويين .

التعصب

وأول هذين النمطين أو الطريقين ، يبشر الناس بأملٍ خاصٍ جديد ، على أنه لا عيب فيه ، ولا يمكن الاعتراض عليه ، وبواجب أسمى انتهى القوم إلى الاعتراف به ، لأنه عَلا على كل الدوافع والمنافع .. حوّل الشعور بالتفاهة والخواء ، إلى شعور بالخطيئة والمعصية ، وحذر غريزى من إساءة الفهم الذى يسوق مساعينا الدنيوية إلى هلاكنا .. إذن فتفاهة الحياة مجرد عارض ليست أصلية وإنما هى خطيئة عارضة ، والإرادة بصفة عامة ليست سبب البلاء ، وإنما الاتجاه الجاهل الزائف فى الإرادة التى لا تعترف بالرضا الممكن الحقيقى .. فالديانة ـ لمواجهة الدنيا ـ تقدم شريعةً خاصةً وأملاً خاصاً فى حياةٍ موفورةٍ طموحةٍ جريئة .. حياة تستبعد الكثير مما يبدو لعقل موهوب ، أنه طيب ومغرٍ . فالدنيوية تقابل فى هذا النمط بالتعصب !

التصوّف

والنمط الثانى من الديانة اللادنيوية ، لا ينحو إلى إغراق الآدمى بولاءٍ طاغٍ لجهة واحدة أثيرة بلا شريك ، ولا يعزو خواء الحياة وتفاهتها لخطأٍ عارض .. بل على الضد يتصور أن أى مصلحة مخصوصة وأى مطلب لمخلوق فانٍ .. قبل كونه لامحدود له .. أمرٌ مكتوب له الهزيمة والخيبة ، وهو

لا يتصور الخطيئة فى عمل مخصوص ، بل يتصور أن الإرادة فى حد ذاتها والعمل فى حد ذاته حماقة وأى حماقة ، وأن علاج ذلك لا يكون بإلغاء الغايات والمصالح المحببة إلى النفس التى تهمنا وتعنينا إلغاءً كليًا ، وليس بالاستعاضة عنها بهوى آخر مفتعلاً أشدّ سطوة وضراوة من الأهواء الطبيعية التى يكتسحها .. هذا الشكل من الديانة يواجه الدنيوية بالتصوف .. فموضع القداسة عنده ليس الانصياع لشريعةٍ معينة سعياً إلى استعادة قدرٍ ما من الإحساس

بالرضوان أو سعياً لنصرةٍ منظمة أو عقيدةٍ مخصوصة ، وإنما القداسة عند المتصوف موضعها في الاعتدال الكلى الدائم ، وفى البصيرة والخلاص من كل هوى وميلٍ ووهم ..فى حكمةٍ غير متجسدة مجردةٍ تقبل الكون وتسيطر على متاهاته .. قادرة على قيادة الآخرين فيه ، دون أن تسعى لنفسها فى تحقيق أى أمل أو إرضاء أية شهوة !

كل من النمطين لا معقول

هذان النمطان مشوبان بالخواء والتفاهة التى يشعر بها ضمير الآدمى نفسه بالنسبة للحياة .. ذلك مما لا شك فيه فيما يتعلق بالتعصب .. إذ التعصب اختيار لشرعٍ أو نظامٍ مخصوص ، أو تفضيل لأملٍ فيما هو بعد الموت ، وهذا وذاك محض تحكمٍ لا يسوِّغه ما قد يقدمه التعصب من إرضاءٍ وإشباعٍ لذات الرغبات التى ادعى فى الأصل أنه اقتلعها .. لاحظ الديانات الموحى بها ، فإنها إنما تؤيد ما تدعيه لنفسها رغم غرابته ، بإظهار أنها تتفق مع العقل الطبيعى ، وبإثبات فائدتها الكاملة لمصالح الآدمى المقيدة فى هذه الدنيا .. لأنه حين لا يوجد هذا المبرر ، يصير التعصب جنوناً شديدَ العدوى ، ومرضاً اجتماعيًا يجب على الفيلسوف الاجتماعى أن يدرسه ويجد له علاجاً .. وكل هوى عنيفٍ يُقتلع إذا ثار هوى آخر عنيف ، وكثيراً ما يصحب التعصب زهادة فى

شيء أو أشياء مرغوب فيها من قبل ، وحدة واندفاع فى حياة المتعصب .. وهذه قوة قلما تستمر ، لأن المتعصب يجفف جذوره ، وحينما يستقر وضعه ، يصبح مجرد تقليد واصطلاح شأنه شأن أى زى أو شكل ، ويصير عشا لسلالة جديدة من العادات الوضيعة المزعجة ، فالغريزيون دنيويون ، ضاق عالمهم ، وانحصر فى حجم معبدهم أو قبيلتهم أو تقاليدهم الكهنوتية !

والتصوّف بطبيعته ، وهى طبيعة تأملية ، لا يبلغ قط هذا المدى من الأذى والضرر ، ولا يؤدى بسهولة كالتعصب إلى العودة للدنيوية .. إذ العنصر النافع طبيعى دائما ابتداء وانتهاء ، وهذا لا يتفق مع إنكار دور الإرادة .. وإذا كانت العدمية الأخلاقيةَ المبنية على إنكار دور إرادة ممكنة التنفيذ ، وأمكن ترك جميع المصالح المعينة والتخلى عنها ، فإن هذا لن يزيل خواء الحياة وتفاهتها ، بل لعله أن يزيد فى إبراز ذلك الخواء وتلك التفاهة ، والرجوع القهقرى خطوة خطوة إلى البداية التى فيها بدأ الوجود .. لن يكشف شيئا فى

الطريق أفضل أو أجدى ، والاعتياد قد يجعل من معاناة الوهم نوعا من الحكمة .. ونحن عادة نفترض أن المعرفة الحقة ممكنة ، وأن الإرادة المعقولة ممكنة كذلك ، فإذا سقط هذا الافتراض يصبح تتبع الأوهام لإزالتها شيئا مذموماً لا قيمة له ، وحينما يشمل البطلان والتفاهة الكون بأسره ويصبح الخلاص خلاصاً سلبياً محضاً ـ يصبح كل آدمى حرا فى أن يعلن بطلان التخلى عن البطلان والتخلص من التفاهة ، وأن الخلاص من هذه وهذا ذنب ومطلب خاطئ .. هذه النتيجة التى تبدو للوهلة الأولى غريبة ، هى النهاية التى ينتهى إليها التصوف فى بعض الأحوال ..

هذا والتشاؤم المطلق والتفاؤل المطلق شعوران متعارضان يصبحان فى الظاهر مذهبين متقابلين ، لكنهما فى الواقع متطابقان فى الأساس .. ففى كل منهما لا أمل فى التحسين والإصلاح ، ولا عمل ولا تأثير للمثل العليا البشرية .. وتصور الخلاص والتئام جراح الطبيعة وإنقاذ المجتمع روح الفرد ـ كل ذلك لغط وطمع يستحق الرثاء .. ينطوى على شىء من

التحدى والتمرد .. ومن يعتقد أن سير الدنيا توجهه العناية الإلهية ، وأن كل ما يحدث أياً ما بلغ وكان أثره ووقعه يحدث بالحق الإلهى - من يعتقد ذلك لديه عذر للإباحية ومحاولة تقييد القوة بالعقل وإلزامها بحد تلزمه وطريق تختاره ، وهذا يعتبر عند المتصوف تمرداً حقيراً على القدرة القادرة على كل شىء ، هذه القدرة التى تعمل عملها حتى من خلال الجنون والجريمة فى الإنسان ، كما تعمل عملها فى الجوائح الطبيعية الخارجية ، وعند الصوفى كل رغبة خصومة تافهة باطلة مصيرها الإخفاق والهزيمة .. والمتصوف فى حالة البسط راضٍ بالهزيمة يقبلها لأنها لازمة وضرورية ، لأنه يرفض أن يميز بين الأشياء تمييزا معقولاً ، ويرفض أن يتخذ المصالح الآدمية كمعيار لما هو صواب ، ولذلك قد ينتهى إلى استسلام تشنجى للأهواء والعواطف ، وإلى تجنيب وامتناع كلّى تدخل الحياة البشرية به فى طور تقلص وضمور !!

هل يوجد سبيل آخر؟

يتساءل سانتايانا ، هل ينبغى لغير الدنيوى أن يكون إما متعصبا وإما متصوفا ؟ هذا سؤال بالغ الأهمية بالنسبة للفيلسوف الأخلاقى .. إذ الإجابة عليه تتوقف عليها معقولية الحياة الروحانية ، بل يتوقف عليها وجود الروحانية ذاتها كنمط من أنماط النشاط الآدمى .. على أن المتعصب والمتصوف ـ كل منهما روحانى من حيث المظهر فقط ، لأن كلاً منهما يعزل نفسه عن الغالبية الغالبة فى العالم .. ذاك بتحرشه المخصوص الذى لا يتركه ، وهذا بسلبيته الكلية وسكوته غير الطبيعى .. والمتعصب ليس إلا دنيويا على درجة من ضيق الأفق والعنف ، لا يستطيع معه أن يفهم العالم .. بينما المتصوف إنسان حسّى شديد الاستغراق فى لذّته (الصوفية) ، بحيث لا يستطيع أن يعرض أحاسيسه على عقله ويستمع لحكمه عليها .. وكلاهما يمثل طوراً من الفطنة

قد أصابه توقف النمو ، وصورة من صور النمو الجزئى فى الحساسية العادية المألوفة .. إذ لا مكان للاهتمام حين لا يبقى لدى الإنسان إلاّ هوى واحد وحيد ، أو حين يتخلى الإنسان عن الأهواء كلها أو يقبلها جميعا معا .. وعلى هذه الصورة تصبح الروحانية طفولة ، إما طفولة بريئة سريعة التصديق تحملق بعينين ليس لهما فائدة ، وإما طفولة خبيثة مشاكسة . تأكلها نزغات شريرة .. والإنسان المجرب يمكنه بسرعة أن يكوّن رأيا فى هذه الظاهرة ، ولا يرى فيها سببا لتوقع وجود حكمة سامية .. وسيقول لنفسه إذا كان ذا خبرة بالسياسة والعمل العام : " أولئك المتشيعة والحالمون " لا يفهم بعضهم بعضا ، ولا يفهمون الدور الذى يمكن أن يقوموا به فى المجتمع ، فعلينا نحن أن نستخدمهم فى أحسن ما يمكننا ، مع مراعاة الاحتياط الممكن وتسخير القوى التى يمثلونها فى نفع عام للناس .

نعم لأن الخبرات لها قيم ذاتية غير قابلة للإسقاط

ومهمة الفيلسوف مع تلك المقدمات ، أن يجد مهربا من الدنيوية يزود الناس بتقدم معقول لا يستطيع أن يزودهم به المتعصب أو المتصوف .. هل تختلف حياة العقل عن حياة العرف ؟ هل هناك روحانية حقيقية أكثر حكمة من الفطنة القادرة أو الحس المشترك ؟ ـ نعم هناك شيء من ذلك في جهات كثيرة .. فالدنيوية هي توقف في النمو واستغراق في أدائيات الحياة ، والأدائيات لا توجد بدون غايات نهائية .. فيكفي أن ترتفع العيون نحو تلك الغايات ، وأن تسأل الإرادة بإخلاص عن الأفضليات الأساسية .. يكفي ذلك لوضع قائمة الطيبات المعقولة التي بسَعْينا إليها ونحوها نهرب من الدنيوية .. والحس نفسه هو أحد هذه الطيبات .. والآدمي الحسّي ليس إنسانا دنيويا وإن كان الجزء الأسمى فيه قد

ضمر ، فإنه لا يخلو فى خبرته من لمحة روحانية داخلية مجردة ، وهو على معنى ما نوع من المتصوف العَرَضى ، يتناول تتابع عوالمه الصغيرة المتنوعة كما يتناول المتصوف عالمه الواحد الممل .. زد على ذلك أن الحسّ قابل لتهذيب كثير .. به يصبح الوجود المادى ذاته نعمة ومكافأة .. ثم فى الحركة المنظمة للمخيلة التى تؤديها الفنون الجميلة ، يصير عمل العقل حراً ويبرر نفسه ويكون مصدر لذّة .. والعلم ليس تدريبا لقوى الفكر فحسب ، بل إنه يقوم بتمثيل الطبيعية للعقل ، فيصبح كل شىء صالحا لغذاء العقل .. فى الحب والصداقة تمتد الحياة الحرة أيضا إلى القلب . كل هذه المصالح والغايات التى تجد مبررها فى ثمراتها الذاتية ، لها فصول ومواضع فى الحياة العادية المألوفة التى يحكمها العرف .. لكن يجب أن نعترف بكل صراحة، بأن هذه كلها ليست إلا واحات فى صحراء ، وأن ينابيع الحياة ينابيع لا معقولة ، وأقوى مصالحها وغاياتها وأكثرها عموما سيبقى لا معقولاً حتى النهاية .. ونحن حين نمد لذائذ الحواس والفن

والود والمعرفة إلى أقصى مدى ، علينا أن نسأل ما هو الجزء الذى تبرره وتغطيه هذه الطيبات من أهوائنا واجتهادنا وحكوماتنا ودياناتنا ؟!

إنه لخطأ بارز من العقلانيين أن يرجعوا بمثلهم الأعلى إلى الطبيعة ، فيصورون أن الآدمى جاع لكى يعرف لذة الأكل ، وأنه فضولى لكى يلتذ باكتشاف الحقيقة ، أو لكى يعرف فى الحب فضل العيش فى التوافق الواعى المقرر له .. مثل هذه النظرة تنسى أن قوى الحياة تعمل أصلا وأساسا من أجل ما بعد لا من أجل ما قبل .. فالخبرة والعقل ليسا أساس تفضيل الآدمى لهذا أو ذاك ، وإنما نتيجة له .. ولكى يعيش الآدميون ، وكتب عليهم أن يعملوا بمقدار غير متناسب ، وأن يأكلوا دون لذة ما هو قذر ، وفضولهم يقود عادةً إلى الوهم والضلال ، وجدالهم يدعوهم إلى كره الصدق ، والحب مصدر عظيم للمرارة ، وكثيرا ما يكون مقدمة للجريمة والموت!

ونحن حين نكشط عن الحياة نجاحاتها العرضية ،

ونجمع اللحظات التى فيها يبرر الوجود ذاته .. نرى أن تلك الأعماق البعيدة ستظل بعيدة كما كانت غامضة باضطرابها وهياجها . نعم فى تلك الأعماق تتوالد براعم العقل وأزهاره ، ولكن براعم العقل وأزهاره لا يستنفد إنتاجها قوى تلك الأعماق بأى حال ، وهذه القوى باقية وستبقى تهدد دائما العقل بالابتلاع والاقتلاع !

يتعين أن تزودنا المخيلة الدينية بمعيار مثالى

لذلك يحتاج الإنسان الروحانى إلى شىء أكبر من تنمية الميل والانجذاب لماهو أشد لمعانا فى الأشياء .. يحتاج إلى رد هذا اللمعان وإسناده إلى نور جوهرى أساسى ، فلا يرى فقط عند استعراض جوانب الخبرة البشرية أنه إنما يقتطف سطحية الأزهار التى تسره ، بل يرى فيها جميعا الصور والرموز لخير أعظم دائم أبدى .. لأن الروحانية لا تزدهر قط منعزلة منفصلة عن الديانة .. اللهم إلا ذهنيا وبالنسبة لبعض العقول الفذة التى كوّن حدْسها الأصيل القوى نوع ديانة للأتباع والتلاميذ .. ذلك لأن الديانة هى وحدها التى تعرف كيف تفسر الحوادث العرضية التى تملأ العالم وتستخلص منها جوهرها وأصلها ، ثم ترفع هذا الجوهر وتشهره فى وجه الطبيعة كمعيار ونموذج للطبيعة يُحتذى ويُتبع .. هذا

التكوين المثالى لكل ماهو خير وطيب .. هذا الوعى الذى يبسط سماءه فوق هذه الأرض .. هذه الرؤية للكمال التى تكلل الجمال بالذهب والأحزان بالقداسة ، تتجسد فى أغلب الأحيان فى صور مادية خشنة ..صور أسطورية معتمة شبه مادية .. تحيط بغموض محزن مثاليتها وجوهرها الأخلاقى ، ومع ذلك فكل ديانة معتبرة قد أودعت أربابها جانبا من حقيقة الخير، وشيئا يجمع ويمثل الخيرات المتفرقة وفتات الجدوى فى خيرات الإنسان ، وهى مضمون حياة العقل .. هذا الترتيب لحياة الآدمى فى أفضل لحظاتها ، هو نفسه كما قال أرسطو ترتيب دائم ، لأنه هو الحياة الإلهية .. وهكذا عبر الفيلسوف بوضوح كامل عن الأصل الذى حاول الشاعر من بداية الأمر تجسيده بطريقة عشوائية .

والعقائد التقليدية المثقلة بكونيات ومتخيلات ، ما تزال قادرة على أن تمثل بصورة دائمة واضحة ذلك الشىء المهم الذى يجعل الخيرات خيّرة والطيبات طيبة .. المثل الأعلى والمعيار لكل خير وطيب ، أن الروحانى بمعونة رموز كهذه

يستطيع أن يسدد ويقيم طريقه فى الحكم على الأشياء ، ويمكنه أن يقول حسب الشكل الذى اتخذته ديانة بلده أن الخير الحقيقى هو ما أمر به الرب ، أو هو ما جعل الإنسان على صورة الرب ، أو هو ما قاد روح الإنسان إلى السماء .. وبرغم أن الفكر الميتافيزيقى يأخذ هذه التعابير بقدر قليل أو كثير من الحرفية ، فإن هذه التعابير لا تخطئ كليةً مقصودها العملى الأخلاقى .. فالرب على ما فهم الناس منذ دهرهم الأطول ، لا يأمر إلاَّ بما هو مهم وحق .. والشىء الإلهى هو الشىء النبيل الجميل حقا وصدقا .. والسماء لم تتوقف عن الاستجابة قط للتطلعات المثالية غير الشخصية .. وتحت هذه الصور تستطيع مثاليات الحياة أن تواجه الحياة نفسها بوضوح وثقة وسلطان .. وإذا جعلها الروحانى صوب عينيه ، يستطيع أن يعيش فى حضور الغايات النهائية والأهداف المثالية ، ويستطيع فى كل ما يكلف به مباشرة ، وفى كل لذة عرضية ونجاح طارئ - أن يحتفظ بدماثته وهدوئه وثباته - مستعدا لأن يجعل كل ما تحمله تلك اللحظات من خير قربانا للواجب الذى يجب أن يحصل .

الخلود المثالى
حتى الخلود فيما يقوم مقام الذات
أمر مستحيل فى ذاته !

يورد سانتايانا فى الفصل الرابع عشر ، أن جهد الآدمى - ذلك الجهد الأصلى الباطل فى أن يبقى بشخصه حيا لا يموت، ليس أقل منه بطلانا حلم الآدمى فى أن يخلد ممثلا فى ذريته ، لأن التوالد شأنه شأن التغذىّ لا يقهر الانقراض كما لا يقهر التطور . فهو لذلك أسلوب فاشل فى تخليد الفانى .. وخصوبة المادة التى أنتجت النوع الإنسانى ، لم تستنفد فى إنتاجه نفسها .. فهى قدرة ثبتت فاعليتها وتحققت بتحقق حياة الأحياء .. قد تنام لكنها تعود دائما إلى اليقظة .. فالطبيعة بصورة ما وبعد أمد ما، يتوقع دائما أن تستيقظ ، ولكن يصعب فى غير هذا الكون وغير الجنس البشرى أن

نتصور خبرة تستحق الاهتمام ..فلا يمكن أن تجد أى تخطيط أو مثل أعلى ولا أية فرصة لتحقيقه إلاّ فينا نحن الآدميين ، ولذلك فالخلود المادى بطريق الوكالة والتمثيل هدف سيظل غير مقنع ، اللهم إلاّ أن يكون تقليدا زائفا لوجودنا يُواجهه نذر الفناء التام دائما .. ستبقى على الدوام نبرة حزن سائدة فى كفاح البشر الدائب ضد الموت الطبيعى ، وهذه فى الواقع ليست مشكلة ، وليس علينا أن نهرب منها إلى آمال غير مهضومة لا تقوم إلاّ على الجهل الذى تصر تلك الآمال على أن تجعله جهلا أبديا .. ولكى نشعر أننا نفنى ، لسنا بحاجة إلى الموت الكلى ، ولا إلى أن نستعير من اختفاء الآخرين آية على فنائنا نحن .. لأن كل لحظة فيها مراسم دفن مزايا لحظة سابقة عليها .. ووجود الذاكرة .. وبها نحن نعيش فيمن يمثلوننا - دليل لا يخطئ على أننا نفنى فعلا وبالتدريج .. والطبيعة حين منحتنا الذاكرة كشفت لنا عن حقيقة فذة يستحيل أن تدركها المخلوقات المحرومة من التدبر، هى حقيقة أننا فانون ، وأن كل شىء يتحرك خلال الفناء ،

وكل شيء لابد أن يتحرك ليسقط فى الحفرة - على غرة . وبفعله هو يحل عُرَى وجوده ، ويهدم بيده نفسه دون أن يدرى إلى أن أضيفت ملكة التخيل العجيبة إلى الآدمى .. فيها يبقى شبح ما هلك وزال ، ويكشف عن هذا الفقد أو الفناء ، وهو فى نفس الوقت وعلى معنى ما يحيد الفناء ويغلبه .

الانتصار الفكرى على التغير

وهكذا كلما ازددنا تفكيرا ازددنا عيشا وحياة مع الذاكرة والأفكار ، وازددنا اقتناعا عميقا بخبرة الموت .. وهذان : الاقتناع والخبرة ، يرفعاننا ربما دون أن نعرف بطريقة ما فوق طائلة الموت .. إنه إيهام بطولى إلهى .. ذلك الذى من طريق إشعارنا بحتمية الفناء بالانحلال ، جعلنا نشارك الأرباب أبديتهم ، وأعطانا تلك المعرفة لتكون سكينة داخلية حقيقية .. وكما أن الذاكرة هى التى تتيح الوعى بأننا نموت والمعرفة بأن كل ما هو واقع هو فى طريقه إلى الزوال ، فإن الذاكرة هى التى تفتح لنا الأبواب لخلود فكرى مثالى .. خلود لم يكن له أى معنى عند آدم الأول القديم ، وهو خلود على طريقته حقيقى صحيح لا سبيل لإنكاره .. خلود التمثيل الفكرى الذى ينظر إلى الأشياء فى حقيقتها التى كانت لها وكانت تحوزها عندما كانت هى هى الواقع وفى الواقع ..

ليس هذا شعوذة ولا تواقحاً بخرافة لإخفاء أو إبعاد لنتائج الخبرة ودروسها ، بل هو بالعكس الخبرة نفسها ، ونفس التفكير والمعرفة ، ونفس الإدراك والوعى لفناء الآدمى .. علماً بأن الذّاكرة لا تطرد ولا تؤجل التفكير الذى تسجله ، وعلما بأنها هى نفسها ليس لها وجود دائم ، بل يمكن أن تكون أقل ثباتا وأكثر تغيراً من الشعور الأولى ، وهى فقط من حيث الوجود نوعٌ مركب معقد من الحساسية الداخلية ، ولكنها بالقصد والمعنى تغوص فى أعماق الزمن .. تنظر وتحملق فى الذين اختفوا .. شاهدة بأنهم رغم تركهم لهذا الجزء من الوجود وعجزهم عن العودة إلى الحياة التى تركوها ، فإنهم وقد عاشوا مرةً حقهم الخاص ، فإنهم باقون كخبرة ، وبقاؤهم هذا واقع صحيح اليوم ، وهو بقاء يعاون مع جميع الماضى والحاضر والمستقبل فى قيمة العالم وامتلائه .

مَجْد هذا

ما فى الحياة من أسًى ومن بطولة هو قبولنا للمقدور كفرصة سنحت ..المقدور الذى يجعل من موتنا نحن أمرا مفيدا يمكن أن يخدم الآخرين خدمة كلية أو جزئية : فالحياة مجيدة . مجيدة بمعرفة أننا نموت ، وقبولنا ذلك كفرصة لأن نحيا فى الروح .. فالتضحية والتسليم فى الذات حقيقيان وحقيقيان دائما ، وبرغم أن المقابل حقيقى أيضا وفى بعض اللحظات غامر ، لكنه ناقص لا يكون كاملا قط .. ناقص يترك تحته حزنا عميقا ليس له صلاح .. لا تستطيع الحياة أن تعارض أساسها ، أو أن تحصل على رضًا ترفضه وتستبعده ظروف الحياة نفسها .. والتقدم هو التحرك إلى الأمام من وضع مفروض موافق لمصالح موجودة كيفما كانت ، فإن تبين أن بعض المطلوب لا أمل فيه ، كان ذلك أدعى لتنمية مصادر أخرى للرضا ربما أكثر وأدوم .. وهنا يكون التفكير وظيفة

حيوية ، وأيضا تجد الذاكرة والمخيلة الإيقاع الكامل وقوة الحياة ، لكن هذه الملكات وهى تواجه الماضى والمثال الأعلى تواجه الأبدى الخالد ، والإنسان تحت سيادة هذه الملكات يصبح بهذا القدر بعيداً فى عواطفه عن دنيا التغير والزوال .. بعيداً عن ذاته وعن مصيره الذاتى الشخصى .. هذا الابتعاد لا يجعله يعيش إلى ما لا نهاية ، ولا سعيدا سعادة مطلقة .. لكن هذا الابتعاد قد يجعله فاهماً عادلاً ، وقد يفتح أبوابه لكل المتع الفكرية والطاقات الإنسانية ، وهما هنا إذن مهرب من الموت مفتوح ، لا يعثر عليه الإنسان باللف حول الطبيعة وخداعها ، ولكن باستعمال وسائل الطبيعة فى لف نواقصها والتغلب عليها مع اكتساب العقل وإحرازه .. ونحن حينما نكشف معنى الإدراكات المتتابعة عند آخر هذه الإدراكات ، حينئذ نقوم بمسحٍ للأشياء التى أحسسنا بها من قبل متفرقة منفصلة .. فى تلك اللحظة التركيبية ، يرتفع الموضوع فوق تيار الزمن على قاعدة من التفكير .. فكرة صادقة فى خلاصها المنقذ المثالى لا تحل عُراها وإن كانت فكرة عابرة من حيث وجودها النفسى .. الوجود أساسا وجود وقتى ،

والزوال هو قدر الحياة ، لأن أساسها عملية تجهيز وعملية تقابل أضواء تسبح فى مجرى الزمن .. لا تعود ولا هى تُسْتعاد ولا تُرد حيازتها قط !

ولأن المادة أصبحت فى لحظة ما حساسة ذكية قادرة على التفكير ، ولأن الزمن أخلى موضعا ووقفة للذاكرة وللتاريخ وللوعى بالزمن ، فقد تجسّد فى ذلك نوعٌ من رؤية الحقيقة .. نوع من الرضا المبنى على نسيان الذات .. صار ذلك تراثا تنقله من لحظة إلى لحظة ، وينقله إنسان إلى إنسان .. هذا التراث هو الإنسانية نفسها .. هو حضور العقل الخالد الذى لا يموت فى مخلوقات تفنى وتزول !

إن الفهم الذى يجعل الإنسان على هذا القدر من الشبه بإله ، قد جعله على وجه ما خالداً لا يموت .. كذلك فإن هذا الفهم أكسب لحظاته المعدودة سرعة بفضل رؤية لا تموت لشىء لا يموت قط .. وهو صدق تلك اللحظات وقيمتها التى لا تقبل الإسقاط والتنازل !

العقل يصنع ألوهية الإنسان

والمشاركة فى هذه الرؤية - فيما يقول سانتايانا - هى مشاركة فى الإنسانية والألوهية فى نفس الوقت .. لأن جميع الروابط الأخرى مادية زائلة ، بينما الرابطة بين فكرين وَصَلا إلى نفس الحقيقة وبين لحظتين صادفتا نفس الجمال ، هى رابطة روحانية غير قابلة للفناء . غير قابلة للفناء لأنها ببساطة فكرية مثالية مقرّها المعنى والقصد والفكران أو اللحظتان .. مختلفتان وهما دائما مختلفتان من الوجهة الوجودية .. ولولا أن كلا منهما قد جاء من جهة خلاف الجهة التى جاء منها الآخر ، لما التقيا واتحدا فى معنى واحد ونظرا إلى نفس الموضوع بفهم متميز لكن متواطئ .. ولأن كلاً منهما له وجوده المستقل ، أمكن أن يتحدا فى وحدة المعنى والنظر من طريق عبادة نفس الإله .ولو كان هذا الفرض المثالى وجودا فى ذاته ، لعجز عن أن يوحّد .. لأن

الهوة التى تفصل بين العقلين الأصيلين تبقى مفتوحة فاصلةً بينهما وبين غرضهما المشترك ، لكن لأن هذا الغرض مجرد غرض مثالى استطاع أن يكون ساحة تلتقى فيها الأفهام ، فقد جعل وحدة الأفهام وحدة فكرية أبدية ، وقد يوجد تنافس وتدافع بين الأنوات المادية والفكرية ، فيتنافس فكران ويصطدمان .. لأن كلا منهما إنما يسعى للحفاظ على بقائه المادى .. لم يعشق الحقيقة مجردة من علاقتها العرضية ولكنتها الإقليمية .. والعلماء لا يختلفون إلا بالقدر الذى ليسوا فيه ـ حقيقة علماء ، فيحاولون كما يحاول أصحاب السفسطة والأجراء ، أن يحاصر بعضهم بعضا ويهزمه .. فالنزاع أو التنازع إذن مادى ، وقد يمتد إلى موضوع البحث بقدر ما يشوب موضوع البحث من التحيّز الشخصى إذا لم يتم رفعه رفعا كليا من المستوى الحسى إلى المستوى الفكرى .. إن رياح العقائد لا وجود لها فى الأثير والفكر ، لأنه جهاز ومصدر الإلهى .. هو نفسه إلهىّ ، وهو أيضا واحد ولو كثرت أنواع الفكر ومبادئ النظر والتطور لخلق عوالم غير معقولة

التصور وغير مقبولة .. فالعقل واحد من حيث إنه يتجه إلى غرض يسمى الحقيقة ، والحقيقة وظيفتها أن تكون بؤرة تجتمع فيها وإليها الأنشطة العقلية ، وهى لا تكون كذلك ما لم تكن واحدة بالنسبة لكل العمليات التى تتوخاها وتتجه إليها .. ووحدة الحقيقة هى بطبيعة الحال وحدة وظيفية .. ليست وحدة مادية أو وجودية .

وطرائق الفكر والمفكرين لا عدد لها ولا حد للاختلافات التى تتعرض لها الموهبة والعادات ، ولكن شرط الاتحاد الروحانى أو التعلق المثالى فى الأفهام ، هو وجود منهج وأجرومية متحدان متطابقان أساسا .. فمثلا اللغة ذات معنى على مقدار ثبات دلالة الألفاظ والعبارات لدى المتحدث فى أوقاته المختلفة ولدىٰ الآخرين ، وهذا الثبات ليس ثباتا مطلقا .. ولذا ليست اللغة كلها بكل ما فيها ذات معنى ، وليست كلها بكل ما فيها قابلة للفهم .. فالبئر فيها دائما جانب من الوحل إذا استخرج منها القدر الكافى من الماء .. لكن فى الأنهار الهادئة برغم جريانها درجة ملحوظة من

الشـفـافيـة .. وهكذا من لحظة إلى لحظة ، ومن إنسـان إلى إنسـان - توجد درجـة ملحـوظة من الوحـدة والإجمـاع ومن الثـبـات .. ومن تطابق القـصـد وعلى أسـاس هذه الوظيـفـة المجردة المتطابقة مع نفسها تطابقا كاملا فى النوع البشرى - قام بناء العلم وكل بناء آخر معقول .

وهو يصنع خلوده

وفى هذه الوظيفة موقع وموضع خلود الإنسان وبقائه . العقل يرفع جزءاً من كل آدمى صغيرا أو كبيرا إلى مستوى من الفكر والمثالية على قدر ما تستطيع خميرة العقل أن ترفع من طينة الآدمى .. لا إنسان يخلد كله ، وما كل فلسفة بصحيحة كلها ، وليست كل لغة قابلة كلها للفهم والإفهام .. وبقدر قدرتها على الفهم والإفهام تكون اللغة لغة وليست ضوضاء .. وبقدر ما فى أية فلسفة من صحة تكون فلسفة لا مجرد منفذ ومنطلق لأحوال المخ .. وبقدر ما يكون الآدمى معقولا وخالدا يكون إنسانا .

من الصعب جدا إقناع الناس بأنهم أُعطوا نعمة ثمينة جدا كنعمة الفهم والذكاء ، وهم وإن أدركوا أساسها الحيوانى لا يدركون خصائصها الفكرية المثالية وجمالها ولا يدركون معنى أنها إلهية .. ولو أدركوا مثاليتها والجواهر الدائمة التى تسبح فى مرآها .. ينكرون على الفور وبشدة

أساسها الحيوانى ، ويعزون ذلك إلى فضل أشخاص من عالم آخر يخترعونهم بلا أجساد .. كأن تلك العناصر السماوية بالنسبة للفكر أقل مادية من المادة ، أو بالنسبة للرؤية والحياة أقل أداتية من أجهزة الجسد .. ولا يتصورون قط أن الطبيعة إذا كانت قد أضافت الذكاء للحياة الحيوانية ، فبسبب القرابة بينهما ولأن كلا منهما ينتمى إلى الآخر .. فالذكاء انبعاث من الحيوية وانبثاق .

وإذا كان الخلود يمكن وجوده بغير أن يكون رؤية تحصل فى زمان ، فإنه على هذا يفقد معناه بالنسبة للآدميين فى دنياهم ، ولا يكون لدنياهم ولا لهم ولا لزمانهم عمل أو مكان فى الأبدية ، ولا يكون لعناء وجودنا عذر أو غرض أو نهاية معقولة لبدايته .. وكل من فكرة الحقيقة وفكرة الكمال - لايكون لأيهما مجال للتطبيق فى خبرة ما بسرد أحلام عن أشياء لا طبيعية غير واقعية فارغة المضمون يفترض مع ذلك افتراضا غير منطقى أن لها عملا فى أغراض الحياة الحقيقية .. الحقيقة والكمال ليسا وجودين شكليين من الموجودات ، وإنما مثالان ساميان فكريان ، ولذلك لا يمكن

قط إبعادهما عن النظر والبحث .. إن الخبرة قد تفقد هذا أو ذاك من معطياتها ، لكنها لكى تستمر يجب أن تظل محتفظة بالشروط التى تعمل فيها لكى تكون خبرة .. فالحقيقة لازمة لكل رأى يعتبر الحقيقة معيارا له ، والكمال وجهة تتجه إليها كل صرخة من أجل الخلاص من المعاناة فى كل مجهود يبذل للتحسين والإصلاح .. إن الآراء والمشيئات وصور الرفض الحارة المتحمسة .. كل ذلك يملأ حياة الآدمى ، ولينكر من يريد وجود الحقيقة فى الواقع .. لأن هذا هو شأن الحقيقة وما تطلبه لنفسها دائما ، وهذه هى منزلتها الباقية التى لا يستطيع أن يحرمها منها أحد .. هى أنها دائما مرتقبة ومتصورة .

هذه الوظيفة موطن
وملتقى كل الحقائق

ولا يوجد برهان أفضل من هذا يثبت أنه لا موضع فى الأبدية للطبيعية والحياة الطبيعية .. هذا القول قد لا يفهم ، لكنه إذا فُهم لا يناقش ولا يرد .. لأن عبارة موضع فى الأبدية ليس معناها موضع أجزاء من وجود خالد أبدى تحجّر وتجمّد كواقع فقد كل حركة ، وإنما معناها فقط أن ما يوجد فى الزمان يكتسب عندما يغمره نور التفكير طابعا غير قابل معزول ، لأنه يكشف علاقات غير قابلة للرجعة فى الاتجاه العكسى . كل واقعة حصل التعرف عليها ، أخذت مكانها فى عالم النظر والقول فى تلك الدائرة المثالية .. ذلك الشىء الذى هو حقيقى والذى هو المعيار الثابت الذى يرجع إليه فى جميع ما يقال . اللغة والعالم والفن والديانة وجميع الأحلام الطموحة كل أولئك يُصر ويرتب فى أفكار .. إذ الحياة نوع

من موزاييك الأفكار والتصورات يشبه موزاييك النجوم فى قبة السماء .. وهذه الأمور الفكرية التى تتخطى الشخصيات والأشخاص وتتجاوزها ـ تقيم الجسور فوق فروق الزمان ، وتثبت المعايير وتنشئ القيم وتقرر المكافأة للجميع .. وهذا هو هو كل أثاث الأبدية ورياشها .. وهذه هى أهداف وأدوات الجدية للعقل .. إذ هو فى جوهره حيوية تلقائية كأية غريزة أخرى ، أو قل هو غريزة إضافية بها تحصل ترجمة جميع الغرائز الأخرى شبيهة بالوحدة السيكولوجية التى تتم بها مواجهة ومقارنة جميع الإدراكات بعضها ببعض .. فالخلود ليس مزية يختص بها جزء فقط من أجزاء الخبرة بل هى أحرى أن تكون علاقة تتخلل كل أجزاء الخبرة ، بقدر متغير .

الخلود الأبيقورى من خلال حقيقة الوجود

لا يتصل الحس الحيوانى بالأبدية إلا من جهة أنه قد حدث ، وأن حقيقة حدوثه وإن كانت واقعة عابرة إلاّ أنها مسجلة فى التاريخ الكونى .. لا يتجاهلها ثَبْتٌ صادق كامل لثروات الدنيا أو لجرائمها .. وهذا طابع فىَ الخبرة .. وهو طابع لا يقبل المحو .. فهو نوع أول من الخلود يقف عنده الفلاسفة العقليون الذين ليس لديهم من الاسترسال فى الفكر ما يكفى للاطمئنان إلى نوع آخر من أنواع الخلود .. كان الأبيقورى يجد عزاءً فى أن يتذكر أن الحاضر حدث ومرّ بأمان ، وأن الحاضر هو الآن مأمون .. وذلك مهما كان أمد اللذة التى فاز بها قصيرا أو غير مضمون ، وكما قال حوراس الشاعر " إنه يعيش سعيدا ذلك الذى هو سيد نفسه .. الذى يستطيع أن يقول لكل يوم ها قد عشت وغدا دعوا جوبيتر يملأ السماء غيوما سوداء أو يملأها بضياء الشمس

.. فلن يستطيع جوبيتر أن يبطل ما سبق .. إنه لن يمحو أنه وُجد وكان .. ذلك الذى جاءت به ساعة واحدة فى مرورها الخاطف " ..

وبالنسبة للعقل فإن هذا الاحتضان والتركيز على الوقائع العاجز عن إصلاحها الذى يعطى للذة والألم على السواء خلودا محايدا - يميل إلى حصر العقل فى رضًا حسّى أنانى .. رضا عقلٍ فقد إيمانه بالعقل وتجاهل عامدا الفارق فى الكرامة والمدى بين المساعى المتباينة .. بيد أن هذا التفكير فيه قوة وبطولة على نحو ما .. فيه رجاء ضعيف غامض ينظر إلى غير المحدود بلوم صادق .. وهو يشير إلى إشباعات فعلية وإلى نجاحات حققتها خبرة فعلية ، ويطلب منا أن نقنع بما كسبته مشيئتنا نحن ، ويقول إذا كنت قد رأيت الدنيا ولعبتَ لُعبتك وربحت ، فما الذى تريده أكثر من ذلك .. إذا ذقت حلاوات وجودها وجب عليك أن ترضى ، وإن كانت خبرتك مريرة فعليك أن تفرح بأنها قد انتهت !

يوجد مطلب أولى للآدمى لا شك يعارضه معارضة صريحة كل من الموت والتغير ، ومع ذلك فلا يمكن أن يُقابل

الانطفاء والفناء برضاء كامل .. حتى المنتحر والزاهد لا يسلمان من قرصة الجسد ، ومهمة الفيلسوف أن لا يثنيه عن طريقه هذا النفور الطبيعى ، وأن يحاول تخفيفه وتلطيفه بمعقولية مضادة ـ تناسب عقل من يخاطبه .

ولأن الأبيقورى قد ترك السياسة والديانة وتوجّس من أى مطمع زاد عن الحد ، فقد طبّق الفلسفة بأمانة كافية على ما بقى لديه .. فاللذائذ البسيطة الصحية هى مكافأة البساطة الصحية .. والسخط عليها لأنها لذائذ محدودة ـ إقحامٌ لعنصر أجنبى مفسد للقضية .. والجوع الصحى له حدود وإشباعه محدود هو الآخر بحد طبيعى .

والفلسفة أبعد ما تكون عن إثارة الناس ضد تلك القيم .. لأن عليها أن تعلمنا أن نرى ما فى تلك القيم من كمال ، وأن نبقى عليها ضمن مثلنا العليا .. وبعبارة أخرى أن ميلاد ساعة واحدة سعيدة مكسب للكون كله .. وربما كان عثورنا على المسرة فى لحظة خاطفة ، هو طريقنا الوحيد لكى نزيد فى مجد الأبدية .

الخلود المنطقى فى
موضوعات الفكر

وتحـرك الأحـداث فى إطـار الثـابت الذى يحـيط بهـا قـد يشتمل على روابط أقل برّانية بالدائم الذى لايقبل التغير .. روابط قد يتمثل فيها ذلك الدائم .. وإذا كانت اللذات الحسّية لا تنمحى بانتهائها بل تبقى بعد انتهائها ، مرضيةً للعقل من جهة أنها إشباعات لحاجات طبيعية ، فإن لذات الفكر تحتفظ أضعاف ذلك بقيمتها إذا نظر إلى ما تطلعت به وما وصلت إليه مما هو حقيقة دائمة وليس مجرد اتزان جسدى .. وكما تاه أرشميدس وهو يقيس وتر الزاوية القائمة وشغل بحدث أعظم تعاليا .. كذلك يعطل العلم والقوة إحساسنا بالتغير .. لأنهما يغرقان الانتباه فى قضاياهما وأصولهما .. الشيخوخة تتحول إلى التدين لتبتعد بالنظر عن الأطلال وتنظر إلى عالم آخر يدوم فيه الشباب ويبقى ما ينبغى أن يكون ، فلا يلحقه

الفساد قبل أن يصل إلى النضج .. والعقل حين ينسيه نفسه في تلك التأملات المجردة ينفطم عن المطالب الفانية ، فلا يتذكر للحظات دنيا لم يبق فيها له إلا القليل مما يجب عمله وربما الكثير مما يجب تحمله ومعاناته ! .. وكما لا يتميزَ الشعور بالضوء الخالص عن ذات الضوء ، كذلك التأمل في تلك الأشياء التي لا يدخل الزمن في تركيبها .. يصبح هذا التأمل وجودا بلا زمن .. إن عدم الشعور بالظروف الزمنية وبفرار الزمن ، يُغرق الفكر للحظة في هوية مع الموضوعات اللازمنية .. وهكذا في معنى آخر مثالي - يتماس العقل والأبدية .

الخلود الأخلاقي
من خلال أنماط الخير الأسمى

أطوار الوعى المتعدية دائما تشير إلى الأشياء الأبدية .. لأنها لا تفتأ تثير حماسا سخيا وحبّا للخير أغنى وأكثر عزاء من تركيز الأنا على الذات ومن نشوة الرياضة عند الرياضيين .. الأحداث نفسها أمتع بكثير مما نجرّده منها بالمصطلحات .. وحركة الإرادة إلى الإمام شىء أكثر واقعية شخصية من قائمة خبراتنا الماضية .. إن تحرك الإرادة إلى الأمام طريق واسع إلى الأبدى .. ما الذى تحصل عليه ؟ ماهو الغرض مما تحاوله ؟ .. ينبغى أن نجد نجاحا ما يتحقق ، أو نظاما يتقرر ، أو تعبيرا ما عن خبرة ما .. إن بلوغ ذلك لا يعطى فقط رضًا بنجاح مجرد ، أو إحساسا بخلود فكرى مثالى .. تلك الأغراض أهداف طبيعية .. هى

مثاليات متعلقة بوظائف طبيعية .. بلوغها لا يستنفد كل ما فيها ..لأنه يحرر ويطلق الوظيفة المعنية بها .. وهو يحدد علامة الإسناد والمقارنة الدائمة العامة لهذه الوظيفة فى كل متغيراتها .. كل درجة من الكمال نصل إليها فى فن ما كفن الحكم مثلا ، تجعل العودة إلى هذا الكمال أكثر سهولة ويسرا على من يخلفوننا .. لأنه قد وُجد مثال مضىء بالإضافة إلى ملكات أخرى هيأها التدريب لاستعادة قدرتها القديمة ، لكن كلما كان الإنسان أقدر على التذكر والاستحضار وعلى تحقيق ذلك المثال ـ كلما عاش الحياة المرجوّة التى سيحاول آخرون أن يحيوها على طريقته كل حسب قدرته ، وكلما ساعدهم فى ذلك وأعانهم على حياة أكثر نُبلاً ـ كلما كان حضوره فى جماعة الخالدين أوسع انتشارا .. وهو عندئذ لا يكون قد تغلب فقط على الزمن بفضل معقوليته الخاصة ، بل إنه يكون قد أضاف حيوات إلى حياته .. لأنه يحيا ثانيةً فى جميع الكائنات المعقولة . وإذا كان للمثالى هذا التعلق الدائم الهام بصراعات الآدميين

، فإن الذى يعيش فى هذا المثال ويترك من بعده للمجتمع أو للفن ما يعبّر عنه ـ يستمتع بخلود مزدوج .. أنه قد استغرقه المثال حيا وبعد موته ليقود نفوذه حياة الآخرين إلى هذا الاستغراق .. يجعل منهم من خلال المثال هوية مع أفضل ما كان هو فيه .. وتجسيدات ومواقع دائمة باقية لكل ما تمنى فى حدود المعقول أن ينقذه من الفناء . فهو يستطيع أن يقول دون شعوذة أو خداع نفس إنه لن يموت كله . فلديه فكرة أفضل من فكرة السوقىّ عن الشىء الذى يتكون منه الوجود أو البقاء .. يكون هو لنفسه شاهد موتها وكاهنها ، وشاهد التحول الدائب للكون .. يكون قد جعل هويته مع ما هو روحانى فى كل روح ـ موجِّهاً فى كل فَهْم . يشعر ويعلم حقيقةً أنه خالد !

من أشعار سانتايانا

هذه ترجمة قطع شعرية للفيلسوف الشاعر الأمريكى جورج سانتايانا ، انتقيتها من كتاب فلسفة سانتايانا الذى قدم له إيرون إدمان :

(٣)

أيها العالم ـ لم تختر الجانب الأفضل

ليس من الحكمة ـ أن تكون عاقلا فحسب

وأن تغلق عينيك فلا ترى داخلك

الحكمة أن تُصدّق القلب .

عثر كولمبس على دنيا ولم يكن معه خرائط

إلاّ الخريطة التى قرأها إيمانه فى السماء

وصدَّق ـ رؤى الروح التى لا تُقهر

كان هذا كل ما لديه من علم وفن

المعرفة التى فى أيدينا ـ مشعل ـ كثير الدخان من خشب الزان

لا تنير إلاّ خطوة واحدة أمامنا

فى خلاء كله أسرارٌ وخوف

سل إذن ضياء الإيمان أن يشرق

فيه وحده تنقاد قلوب الفانين ـ

إلى كل ما هو مقدس من الأفكار .

(٤)

تمنيت لو وُلِدت فى بداية الطبيعة .

حين كان الإنسان ـ صبيا مفتوح العينين .

وسحب الأسى تعبر سماء سروره

وتنثر نقاط الندى على براعم مايو .

إذ ذاك كان يستطيع أن يعمل ويحب ويقاتل ويصلى

لم يكن شقاء القلب قد نما فيه من طول ما لعبت به الحظوظ .

كان قويا على البناء لا يبالى بالهدم .
عاش حيث يرقد الموت مستتراً لا يسأل عنه أحد
والآن نتأمل نحن أطلال السنين .
ونئن تحت ثقل المكاسب التى نفخر بها .
لا يسحر آذاننا غناء عابدات باكوس .
ولا تقود رقصاتنا إلى المعبد القائم فى الغاب
لا أمل فى السماء تندُبُ به دموعنا القلائل
ولا يسكّن سوء وفادة الآلام !

(٦)

حِبّ - لا كما يحب السجناء فى أجسادهم .
الذين يحلمون بالعناق المر المشترى بالمال .
أو حتى الذين يحلمون بحنان عذراء .
يحبونها فقط لكى تبادلهم الحب وتستمر عليه .
إنك عندئذ لا تحب إلاّ نفسك
أو شيئا يرى فكرك أن حيازته مجيدة

لا تحب شيئا يقل حُبكَ له إذا استتر عن رؤيتك

حب الكل الأبدى الخالى من الشكل

الذى من وقدته شعاع واحد قد يتسرّب

وينكسر على منشور طينتك المتحللة

فتتراقص ألوان روحك

هذه تلمع وتزول - لا تطلب منها أن تبقى

لأن الحكمة تلمع حينما تنطفئ تلك الألوان

(٧)

وددت أننى نسيت من أكون أنا

وحطمت الأغلال التى تشد وثاقى .

التى شكلت حلقاتها أفعالى .

إن ما هو مدفون فى قبر الجسد - لا حدّ له

إنه روح السماء .

سيد المستقبل وحارس الماضى وحافظه

أخيرا سينطلق سريعا ويعرف الذى له .

فى حياته الكبيرة التى يحياها يسعدنى أن أموت .

تسعد البهيمة البكماء الجائعة لكنها

لن تسمى الآلام آلامها .

تبارك الملاك الذى يحملق فى كل خير .

يا لتعس الفانين الذين يستغرقون فى همهم

الذين كتب عليهم أن يروا داخلهم المؤلم - وأن يروه وهم وحدهم بلا أنيس !

كتب وإصدارات أ. رجائى عطيه

(١) أوراق - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .

(٢) من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .

(٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨ .

(٤) بشاير - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .

(٥) باسمك اللهم - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .

(٦) بسم الله - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .

(٧) نواب القروض - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١, ٢٠٠١

(٨) يارب - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١, ٢٠٠١

(٩) قضية النقابيين - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١, ٢٠٠١

(١٠) أبو ذر الغفارى - روز اليوسف ، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٥,

(١١) قضية الجمارك الكبرى - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢, ٢٠٠٢

(١٢) مواقف ومشاهد إسلامية - دار الهلال - ط ٢, ٢٠٠٢

(١٣) ماذا أقول لكم - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣,

(١٤) عالمية الإسلام - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١ ، ط ٢ - ٢٠٠٣ .

(١٥) إبحار فى هموم الوطن والحياة - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .

(١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال ـ دار الشروق ـ ط ٢٠٠٤ .

(١٧) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الأول ـ روز اليوسف ـ ط ٢٠٠٣ .

(١٨) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الثانى ـ روز اليوسف ـ ط ٢٠٠٣ .

(١٩) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الثالث ـ روز اليوسف ـ ط ٢٠٠٤ .

(٢٠) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الرابع ـ روز اليوسف ـ ط ٢٠٠٥ .

(٢١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الخامس ـ المكتب المصرى الحديث ـ ط ٢٠٠٦ .

(٢٢) الإنسان والكون والحياة ـ كتاب الهلال ـ أكتوبر ٢٠٠٥ .

(٢٣) تأملات غائرة ـ دار الشروق ـ ط ٢٠٠٦ .

(٢٤) الأديان والزمن والناس ـ كتاب الهلال ـ سبتمبر ٢٠٠٦

(٢٥) شجون وطنية ـ المكتب المصرى الحديث ـ ٢٠٠٦ .

(٢٦) الهجرة إلى الوطن ـ كتاب الهلال ـ نوفمبر ٢٠٠٧ .

(٢٧) رسالة المحاماة ـ دار الشروق ـ سبتمبر ٢٠٠٨ .

(٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية ـ المكتب المصرى الحديث ـ سبتمبر ٢٠٠٨

(٢٩) فى رياض الفكر ـ كتاب الهلال ٢٠٠٨ .

(٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .

(٣١) من تراب الطريق ـ الكتاب الأول ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .

(٣٢) من حصاد المحاماة ـ المجلد الأول ـ المكتب المصرى الحديث .

(٣٣) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثانى ـ المكتب المصرى الحديث

(٣٤) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثالث ـ المكتب المصرى الحديث

(٣٥) من حصاد المحاماة ـ المجلد الرابع ـ المكتب المصرى الحديث

(٣٦) من حصاد المحاماة ـ المجلد الخامس ـ المكتب المصرى الحديث

(٣٧) من حصاد المحاماة ـ المجلد السادس ـ المكتب المصرى الحديث

(٣٨) من حصاد المحاماة ـ المجلد السابع ـ المكتب المصرى الحديث

(٣٩) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثامن ـ المكتب المصرى الحديث

(٤٠) من حصاد المحاماة ـ المجلد التاسع ـ المكتب المصرى الحديث

(٤١) من حصاد المحاماة ـ المجلد العاشر ـ المكتب المصرى الحديث (تحت الطبع)

(٤٢) دولة الأيام ! ـ كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩

(٤٣) من تراب الطريق ـ الكتاب الثانى ـ المكتب المصرى الحديث

(٤٤) الأمن والأمان : قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام ـ المكتب المصرى الحديث

(٤٥) عبقرية إنكار الذات ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ تحت الطبع .

الفهـرس

تقديم ٣

العقل فى الديانة ـ قد تكون الديانة تجسيداً للعقل ٧

كل ديانة إيجابية ومتفردة ١١

هدف الديانة حياة العقل ١٣

لايمكن إنكار القيمة الشعرية للديانة ٢٠

الديانة تأتى قبل العلم وتفوقه ٢٢

الديانة رمزية ٢٣

السحر ـ القربان ـ الصلاة ٢٦

ماذا وراء فكرة القربان ؟! ٢٨

فنون الطقوس والقرابين فى الزمن الغابر !..... ٣١

تقدمات الشكر ٣٢

قربان القلب النادم التائب ٣٥

ليست الصلاة نفعية فى جوهرها ٣٧

الفاعلية المزعومة سحرية ٤٠

الألفاظ اللاهوتية ٤١
لو كان للدعاء فاعلية لكانت فاعلية ميكانيكية ٤٣
فوائد الدعاء الحقيقية ٤٥
الروح تجلى مثلها الأعلى وتزيده اتضاحا..... ٤٦
الرضاء بما لايمكن تفاديه ٤٨
الدعاء يربى الحياة الروحية بتصورها فى إسقاطاتها..... ٥٠
مثوبة الانضباط والتأمل ـ هى ذات الانضباط والتأمل ٥٣
علم الأسطورة " الميثولوجيا " موضع الحكاية فى العقل ٥٦
الأسطورة تحتاج لعبقرية ٥٨
الأسطورة دائما نصف خديعة ٦١
جوهر الأسطورة ـ تفسيرى ٦٤
مقابلة الأسطورة بالعلم ٦٧
أهمية العامل الأخلاقى ٦٩
اغتمار الأسطورة ٧١
الأسطورة تبرر السحر ٧٤

الأسطورة قد تكون ميتافيزيقية ٧٥
الأساطير تظهر جاهزة الصنع فى أجزاء .....
من النسيج الاجتماعى ٧٧
إنهم يربكون الضمير ٧٩
الملحمة المسيحية..... ٨٠
الميثولوجيا لغة ويجب فهمها على أنها.....
تؤدى شيئا عن طريق الرمز..... ٨٧
التقوى صميم الديانة ليس مسرحيا ٩٠
الولاء لمصدر وجودنا ٩٢
إينياس التقى ٩٣
لا بد من خلفية مثالية ٩٥
التقوى تسلم بالظروف الطبيعية وبالواجبات الراهنة ٩٩
الانقياد للغريزة أمر عادى ١٠١
لزوم التجسد للروح ١٠٤
تقوى الآلهة تأخذ صورتها من المثل العليا السائدة ١٠٦
ديانة الإنسانية ١٠٩

التقوى العالمية..... ١١٢
الروحانية وما يغشاها روحانى من يعيش.....
لمثل أعلى ومن أجله..... ١١٥
الروحانية أمر طبيعى..... ١١٨
إمكان أن يكون الوعى البدائى روحانيا ١٢٠
ماذا يعترض طريق الروج ؟ ١٢٢
الدنيوية أحد أعداء الروح ١٢٦
اللذة .. ما لها وما عليها..... ١٢٧
الحاصل النهائى لحكمة الدنيوى ١٣٠
طريقان مزعومان للهرب من التفاهة والخواء
والغرور ١٣٣
التعصب ١٣٤
التصوف ١٣٥
كل من النمطين لا معقول ١٣٧
هل يوجد سبيل آخر ؟..... ١٤١

نعم لأن الخبرات لها قيم ذاتية غير قابلة للإسقاط ١٤٣
يتعين أن تزودنا المخيلة الدينية بمعيار مثالى..... ١٤٧
الخلود المثالى - حتى الخلود فيما.....
يقوم مقام الذات أمر مستحيل فى ذاته ١٥٠
الانتصار الفكرى على التغير..... ١٥٣
مجد هذا..... ١٥٥
العقل يصنع ألوهية الإنسان ١٥٨
وهو يصنع خلوده ١٦٢
هذه الوظيفة موطن وملتقى كل الحقائق ١٦٥
الخلود الأبيقورى من خلال حقيقة الوجود..... ١٦٧
الخلود المنطقى فى موضوعات الفكر..... ١٧٠
الخلود الأخلاقى من خلال أنماط الخير الأسمى ١٧١
من أشعار سانتايانا..... ١٧٥

الهلال
نوفمبر 2009 - الثمن 5 جنيهات

نزار.. فارس العشق

بين الغياب والحضور

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

هذا الكتاب

اعتاد كثيرون أن ينسبوا للأديان بعامة أنها لا تحتفى بالعقل ، وتأخذ بالآدمى إلى منطقة بعيدة بقدر أو بآخر عن إعمال العقل والتفكير .. واتهام الأديان بالابتعاد عن العقل اتهام قديم ، دفعه المتدينون وعلماء الأديان ، وعنيت الكتابات الإسلامية بخاصة بالتنويه بأن الإسلام بالذات عنى بالعقل عناية جمة لم يعن بها أى دين من الأديان ، وتكررت الإشارات إليه فى القرآن المجيد بكل وظيفة من وظائفه ، سواء فى مسائل العقيدة أو فى بدائع الخلق ، أو فى أمور التبعة والتكليف ، وبهذه الإشارات القرآنية المتعددة المتنوعة ، تقررت فريضة التفكير ـ وقوامه العقل ـ فى الإسلام ، وفيها كتب العقاد كتابًا ضافيًا بعنوان " التفكير فريضة إسلامية". بهذه الكلمات يقدم رجائى عطية لهذا الكتاب : " قد يكون الدين تجسيدا للعقل " ـ ينقل فيه عن الإنجليزية إلى قارئ العربية فصولا من بـاب : " العقل فى الديانةMind in relig من كتاب الفيلسوف الشاعر الأمريكى جورج سانتايانا : " حياة العقل The life of reason .

رجائى عطية ليس غريباً على القارئ العربى ، أوكتاب الهلال الذى نشر له : "الإنسان والكون والحياة" و"الأديان والزمن والناس" و"الهجرة إلى الوطن " و " فى رياض الفكر " و " دولة الأيام " . فهو المفكر الأديب المحامى المعروف ، الذى أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات فى شتى المجالات ، مثلما أثرى العمل الوطنى وأثرى المحاماة وصار واحداً من أعلامها الكبار، واتسعت مؤلفاته للفكر والأدب، وعلوم الكتاب الحكيم ، والإسلاميات التى ضمت فيما ضمت عالمية الإسلام، ومواقف ومشاهد إسلامية، وأبو ذر الغفارى، ومطول السيرة النبوية فى رحاب التنزيل فى خمسة مجلدات .

ألماتى بلغة كازاخستان
معناها "غنية بالتفاح"

مباشرة إلى ألماتى بـ ١٩٠٠ جنيه*

ألماتى-كازاخستان أحدث إضافة إلى شبكة مصر للطيران.
الآن سافر إلى ألماتى يومى الإثنين والجمعة من كل إسبوع بأسعار تبدأ من ١٩٠٠ جنيه*. وبمناسبة بدء الرحلات إستمتع بحصولك على ضعف الأميال على كارت المسافر الدائم.

*هذه الأسعار للذهاب والعودة ولا تشمل الرسوم والضرائب.
لمزيد من المعلومات إتصل بـ ١٧١٧ من أى موبايل أو ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ من أى خط أرضى أو بأقرب وكيل سياحى.

EGYPTAIR

A STAR ALLIANCE MEMBER